

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

الجزء الثاني



هل هو صوت داخلي

الدكتور

رضا محمد الدقيقي

من إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

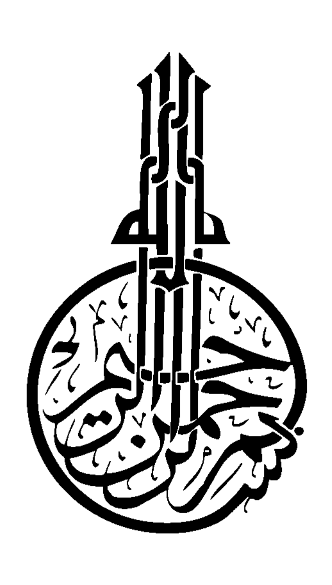
الطبعة الأولى
الدوحة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قام بعمليات المراجعة والتنضيد الضوئي والإخراج الفني



دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ١٤٦٢٧٣٣٦ (٩٦٦)+ فاكس: ١٤٦١٢١٦٣ (٩٦٦)+
القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢)+ فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢)+
بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

وبعد...

١- فلقد أوقفنا الجزء الأول من هذه الدراسة على خطأ نولدكه فيما ادعاه من أن الوحي إلى محمد ﷺ لم يثبت بقرآن أو سنة. كما أوقفنا على بطلان تفسير نولدكه لوحي الله إلى محمد ﷺ على أنه عرَض لمرض نفسي يدعي نولدكه أن رسول الله كان مصابًا به منذ شبابه المبكر، وظل يعاوده على فترات متقطعة فيما يسميه نولدكه نوبات صرعية.

٢- وهذا هو الجزء الثاني من الدراسة، وهو بعنوان:

الوحي إلى محمد ﷺ: هل هو صوت داخلي[1]؟

وأتناول فيه رؤية نولدكه أن رسول الله كان صادقًا حين قال إنه قد أوحي إليه. لكن نولدكه يرى أن الوحي إليه ﷺ لم يكن سوى صوت نما بداخله (كرد فعل على شرك قومه). وكان سبب ظهور هذا الصوت الداخلي عاملان هما: الخلوة الطويلة في الغار، والتفكر في عقائد أهل الكتاب. لكن محمدًا ظن أن هذا الصوت الداخلي صادر له من الله تعالى وذلك بسبب الطبيعة النفسية الساذجة التي يدعيها نولدكه للنبي محمد ﷺ.

---

(١) نجد في هذا الجزء الآراء التي طرحها نولدكه في القسم الأول من كتاب: تاريخ القرآن بالألمانية صفحات: ١-٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٢٠-٢٤، ٢٧-٢٨، ٩٥-٩٦، ١١٦، ١١٨، ١٤٨-١٤٩، ١٩٣، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٥-٢١٦، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٥٣، ٢٥٩-٢٦١.

٣- آراء نولدكه التي يعالجها هذا الجزء:

يقول نولدكه[١]:

"Wenn Muhammed aber das von Fremden Empfangene in langer Einsamkeit mit sich herumtrug, es auf seine Denkweise wirken und nach dieser wieder sich umformen ließ, bis ihn endlich die entschiedene innere Stimme zwang, trotz Gefahr und Spott damit vor seine Landsleute zu treten, um sie zu bekehren. So müssen wir darin den oft bis zum Fanatismus gesteigerten Propheteneifer erkennen".

"عندما حمل محمد في خلوته الطويلة أفكار الغرباء[٢] وتركها لتتفاعل مع فكره؛ أخذت تتشكل بداخله إلى أن أجبره الصوت الداخلي أخيرًا أن يتقدم لمواطنيه ليهديهم، رغم الخطر والاستهزاء. بهذا يجب أن نفهم حماس النبوة الذي يصل لدرجة التعصب".

ويقول[٣]:

"Je genauer man die besten Biographien und die unverfälschte Quelle für die Erkenntnis seines Geistes den Qoran, kennen lernt, desto fester wird man davon überzeugt, daß Muhammed innig an die Wahrheit seines Berufs glaubte, den falschen Götzendienst der Araber durch eine höhere, selig machende Religion zu ersetzen. Wie hätte er sonst im Qoran mit solchem Feuer gegen die Lügner predigen können, denen er die schrecklichsten Höllenstrafen verspricht, so daß er erklärt, er würde selbst der göttlichen Strafe verfallen sein, wenn er nicht die ganze Offenbarung verkündete?"

"إن المرء كلما تعرف على روح محمد أكثر من خلال أفضل السِّيَر والقرآن، الذي هو المصدر الصحيح الذي ليس عليه غبار، ازداد ثقة أن محمدًا قد آمن بحقية

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

(٢) يقصد اليهود والنصارى. [المؤلف]

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

رسالته، وأنه عليه تبديل عبادة الأوثان الخاطئة عند العرب؛ وإلا فكيف قويَ على أن ينذر المكذبين برسالته، متوعدًا إياهم بأشد عذاب في جهنم؛ لدرجة أنه يوضح أيضًا أنه ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا؟".

ويستدل نولدكه[1] على ما يسميه: (خوف النبي من عدم التبليغ) بالآيات: المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣.

ويزعم نولدكه أن النبي كان لديه في البداية خوف شديد هو الذي منعه من إعلان دعوته؛ لكنه فيما بعد قاوم بالصوت الداخلي ذلك الخوف حيث أوجب عليه البلاغ؛ يقول[2]:

> *"Dazu kommt noch die Tatsache. welehe freilich die Muslime zu verdecken suchen. daß Muhammed von Natur weich. ja furchtsam war. so daß er zuerst gar nicht wagte. öffentlich aufzutreten; aber die innere Stimme liess ihm keine Ruhe: er mußte predigen und mußte sich so oft er den Mut hatte sinken lassen. immer wieder emporraffen. trotz der Schmähungen und Beleidigungen von seiten seiner früheren Freunde".*

"إضافة إلى هذا، تأتي حقيقة يحاول المسلمون التغطية عليها، وهي أن محمدًا كان بطبيعته ليِّن الجانب، أو قُل: خوافًا؛ حيث لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته، لكن الصوت الداخلي[3] لم يدعه في راحة؛ لقد أوجب عليه أن يبلِّغ، وكان يشُدُّ من أزر شجاعته كلما وهنت برغم إهانات وتوبيخ أصدقائه القدامى".

وادعى نولدكه أن النبي عدَّ ذلك الصوت معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢. مع مراعاة أن نسخة القرآن التي اعتمدها هي طبعة فلوجل.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٣) لدى مونتجمري وات: (محمد في مكة ص ٨٤) فكرة مماثلة؛ حيث ادعى أن كلمة جبريل للنبي: «أنت رسول الله» يمكن ألا تكون تعبيرًا خارجيًّا، بل هي تعبير فكري (داخلي) أي أنه لم يسمع، ولم يخيل إليه أنه يسمع".

عنه خلط النبي بين الديني والدنيوي؛ قال[1]:

"Da er nicht imstande war Geistliches und Weltliches scharf auseinanderzuhalten. gebrauchte er die Autorität des Qorans oft um Dinge anzuordnen. die nichts mit der Religion zu tun hatten. Man darf aber bei der Beurteilung dieser Tatsache nicht übersehen. daß für seine Zeit Religion und Gesellschaftsordnung noch enge miteinander verbunden waren. und daß das Herabziehen Gottes in die allermenschlichsten Angelegenheiten auf der anderen Seite das Alltagsleben in eine höhere. göttliche Sphäre erhebt.

Ein naiver Denker. wie er war. mußte Muhammed alles für erlaubt halten. was der Stimme seines Herzens nicht geradezu widersprach".

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام.

إن مفكرًا ساذجًا مثل محمد كان يجب عليه أن يَعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا".

لكن لماذا اعتبر النبي ذلك الصوت الداخلي وحيًا من الله؟ يجيب نولدكه عن هذا في ضوء تصوره للنبوة على إطلاقها؛ إذ هي عنده مكونة من ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: النظر العقلي. وهذا الأخير لم يكن للنبي محمد - في زعم نولدكه - حظٌ منه؛ لذا اعتبر أن شعوره الداخلي هو صوت الله؛ يقول[2]:

"Aber der Geist Muhammeds ist mit zwei großen Mängeln behaftet. die seine Hoheit sehr beeinträchtigen. Wenn überhaupt

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

die Prophetie mehr aus der erregten Phantisie und unmittelbaren Eingebungen des Gefühls entspringt. als aus der spekulierenden Vernunft. so fehlte es Muhammed ganz besonders an dieser. Während er eine große praktische Klugheit besaß. ohne die es ihm nie gelungen wäre. über alle Feinde zu triumphieren. ermangelte er fast gänzlich des logischen Abstraktionsvermögens. Darum hielt er das. was sein Inneres bewegte für etwas ganz äusserlich vom Himmel her Hineingelegtes und prüfte nie seinen Glauben. sondern folgte dem Instinkt. der ihn bald hierhin. bald dorthin trieb. denn er hielt ja gerade diesen für Gottes Stimme. die ihm besonders zuteil würde".

"لكن روح محمد مرتبطة بنقصين كبيرين يقللان من قدره:

فإذا كانت النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري؛ فإن محمدًا كان ينقصه هذا الأخير[١] بشكل فادح[٢].

وفي حين أنه كان يمتلك ذكاء عمليًّا شديدًا، لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه؛ فلقد كان ينقصه – بشكل رهيب – القدرة على التجريد المنطقي[٣]؛ لذا فقد اعتبر كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان؛ بل انقاد للشعور الغريزي، الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعتبر [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

ويدعي نولدكه أنه بسبب هذا اعتُقد في (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام، ونظر النبي إلى السور التي يزعم نولدكه أن فيها برهنة على التفكير الواعي لمحمد؛ والأخرى التي يدعي أنها تُعد نِتاجًا لحالته النفسية الهائجة العنيفة؛ على أنهما معًا

(١) [النظر العقلي].

(٢) [هذا هو النقص الأول المزعوم]. [المؤلف]

(٣) [وهذا هو النقص الثاني المزعوم]. [المؤلف]

رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ دون تفريق، وأن هذا فُعل أيضًا من الأنبياء الإسرائيليين. وأن هذا لم يكن من محمد خداعًا؛ وإنما سببه: الإيمان الساذج؛ يقول[1]:

"Daher kommt auch jene äusserliche. buchstäbliche Auffassung der Offenbarung. die dem Islam zugrunde liegt.

Hiermit hängt zusammen. daß Muhammed Suren die er nachweisbar mit bewußter Überlegung und Benutzung fremder Erzählungen anfertigte. ganz wie ersten Erzeugnisse seines glühend erregten Gemütes für wirkliche Gottesbotschaften ausgab.

Indessen könnte dieser Vorwurf auch den israelitischen Phopheten gemacht werden. welche ihre schriftstellerischen Erzeugnisse als "Worte von Jahve Zebaoth" publizierten.

Im allgemeinen aber wird solche Formulierung. hier wie dort. nicht von der bewussten Absicht. zu täuschen. eingegeben sein. sondern von dem naiven Glauben.

Die Propheten sind ja nicht nur in der Ekstase Medien der Gottheit. vielmehr kann ihnen ihr ganzes Denken und Tun als unmittelbarer Ausfluß göttlichen Wirkens erscheinen.

Trotzdem hat Muhammed. wie wir später noch sehen werden. weder jede Offenbarung zur Aufnahme in den Qoran bestimmt noch viel weniger seine Aussprüche alle für Offenbarungen ausgegeben".

"من هنا يأتي الأخذ الحرفي للوحي الذي هو[2] أساس الإسلام.

ويتعلق بهذا أن محمدًا نظر إلى السور التي فيها برهنة على التفكير الواعي لديه[3] واستخدم فيها القصص؛ على أنها مثل [الأخرى التي هي] نتاج حالته النفسية الهائجة العنيفة في كونها رسالةً إلهيةً حقيقيةً. وقدمها على أنها كذلك.

بهذا يمكن أن يؤخذ نفس المأخذ على الأنبياء الإسرائيليين الذين نشروا أعمالهم الكتابية على أنها (كُتبت من رب الصباؤوت).

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤، ٥.

(٢) [أي الأخذ الحرفي].

(٣) لم يذكر نولدكه مثالًا واحدًا لهذه السور.

وبشكل عام، فإن هذه التعبيرات هنا أو هناك لم توضع عمدًا بهدف الخداع؛ وإنما مرجعها إلى الإيمان الساذج.

لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ بل في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية ذاتها.

وبالرغم من هذا فإن محمدًا - كما سنرى ذلك أيضًا فيما بعد - لم يُدَوِّن جميع الوحي في القرآن، كما لم يقل أيضًا: إن جميع تصريحاته تُعد وحيًا".

كما فهم نولدكه النبوة مطلقًا: على أنها مجرد شعور لدى أي نبي أنه مدفوع من قوة إلهية للتبليغ.

يقول[1]:

"Das Wesen des Propheten besteht darin. daß sein Geist von einer religiösen Idee erfüllt und endlich so ergriffen wird. daß er sich wie von einer göttlichen Macht getrieben sieht. jene Idee seinen Mitmenschen als von Gott stammende Wahrheir mitzuteilen.......

Jesus von Nazareth wollte mehr sein als ein Prophet. Denn er fühlte sich als der von den Propheten Israels verheißene Messias und als der Begründer einer neuen Religion des Herzens und der Gesinnung; ja er wußte seiner Gemeinde die Gewissheit einzuhauchen. daß er als der Sohn Gottes und der Herr der Gläubigen. trotz Martern und Tod. in die Herrlichkeit des Vaters einginge".

"إن طبيعة الأنبياء تجعل روح النبي ممتلئة بفكرة دينية يتأثر بها إلى درجة تجعله يشعر أنه مدفوع من قوة إلهية ليبلغ فكرته هذه إلى مواطنيه على أنها حقيقة مأخوذة من الله...

إن مسيح الناصرة أراد أن يكون أكثر من نبي؛ لأنه كان يشعر أنه هو المسيح الذي وعد به أنبياء بني إسرائيل. وباعتباره مؤسسًا لدين القلب والفكر الجديد؛ فقد

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١، ٢.

عرف كيف يبث الثقة في طائفته أنه هو ابن الإله وسيد المؤمنين؛ الذي رغم العذاب والموت؛ قد ذهب في عظمة الأب".

والنبوة عند نولدكه مكونة من ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: النظر العقلي؛ يقول[1]:

"...überhaupt die Prophetie mehr aus der erregten Phantisie und unmittelbaren Eingebungen des Gefühls entspringt, als aus der spekulierenden Vernunft..."

إن "النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري".

ويقول[2]:

"Die Propheten sind ja nicht nur in der Ekstase Medien der Gottheit, vielmehr kann ihnen ihr ganzes Denken und Tun als unmittelbarer Ausfluß göttlichen Wirkens erscheinen".

"لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها؛ بل في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

والدليل على إيمان محمد المطلق بنبوته - عند نولدكه - هو وجود أتباع كثيرين له من المسلمين: نبلاء، وعقلاء، وذوي نسب رفيع؛ يقول[3]:

"Wie hätten ihm so viele edle und verständige Muslime, vorzüglich seine nächsten Freunde Abu Bekr und Omar in Glück und Unglück mit ausdauernder Treue zur Seite stehen können, wenn er bloß ein Gaukler gewesen wäre?

Ganz besonders erhöht den Wert des Zeugnisses vieler Anhänger noch der Umstand, daß sie, Männer aus angesehenen Familien, in allem Geschlechtshochmut des durch und durch aristokratischen

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣، ٤.

Arabers aufgewachsen, aus Begeisterung für den Propheten und seine Lehre sich einer Sekte anschlossen, die größtenteils aus Sklaven, Freigelassenen und andern Leuten der niedrigsten Klasse bestand, obgleich ihnen dies von ihren Landsleuten zur größten Schande angerechnet wurde".

"لو كان محمد مجرد مهرج، فهل كان يسانده في السراء والضراء مع ولاء مطلق، كثير من المسلمين النبلاء والعقلاء؛ وبخاصة صديقاه القريبان منه أبو بكر وعمر؟

ترتفع بشكل خاص قيمة شهادات عديد من أتباعه بوصفهم رجالًا من عائلات مرموقة نشئوا في نسب رفيع بين العرب الأرستقراطيين؛ وعن حماس للنبي وتعاليمه انضموا لطائفته التي كان أكثرها عبيدًا أو عتقاء أو أناسًا آخرين ذوي طبقة دنيا، وكانوا يَعرفون أن ذلك يُعد من وجهة نظر مواطنيهم عارًا عليهم".

***

هذه هي نصوص نولدكه التي يطرح فيها تفسيره للوحي المحمدي على أنه صوت داخلي؛ ويمكن لنا أن نصنفها إلى النقاط الآتية:

- دخل النبي في خلوة طويلة.
- تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (يقصد أهل الكتاب).
- فنشأ صوت داخلي ظنه وحيًا من الله.
- دليله على وجود هذا الصوت الداخلي عند النبي ﷺ هو أن النبي كانت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين رغم أنه كان شديد الخوف؛ كما كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ فافتراض هذا الصوت الداخلي هو التفسير الوحيد لوجود هذين الأمرين.
- ويجيب نولدكه عن سؤال: لماذا نظر النبي إلى ذلك الصوت الداخلي على أنه قادم له من الله وحيًا؟ فيرى أن النبي لم يكن لديه حظ من النظر العقلي أو التجريد المنطقي.

ترتب على هذا أن:

- أصبح (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام.
- نظر محمد ﷺ - كعادة الأنبياء الإسرائيليين - إلى كل السور الواعية (سواء الهادئة أو الحماسية)؛ على أنهما رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ. وهذه النظرة ليست خداعًا من محمد؛ بل بسبب الإيمان الساذج.
- عَدَّ محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا.
- سكب هذا الصوت في شعور محمد ﷺ الإيمان المطلق بنبوته.
- نشأ عن هذا الصوت حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب.
- أعطى هذا الصوت النبي القوة لأن يتوعد الكافرين بالعذاب إذا لم يستجيبوا له.
- أجبر ذلك الصوت محمدًا على التبليغ، وجعله يعلن خوفه هو أيضًا من عذاب الله إذا لم يبلغ.

من هنا يأتي هذا الجزء في ثلاثة فصول:

الفصل الأول عنوانه: نشأة الصوت الداخلي.. مناقشة ورد

أعرض فيه بالتحليل والنقد لحديث نولدكه عن الملابسات التي أنشأت الصوت الداخلي الذي يزعمه للنبي محمد. كما أتناول كذلك الدليل الذي يطرحه نولدكه على وجود ذلك الصوت.

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول:** مناقشة دليله على وجود الصوت الداخلي المزعوم.
- **المبحث الثاني:** تفسيره لنشأة ذلك الصوت.

والفصل الثاني عنوانه: دعواه افتقاد النبي التجريد المنطقي. وأعرض فيه بالتحليل والنقد لدعوى نولدكه أن النبي كان ينقصه بشكل فادح كل من النظر العقلي والتجريد

المنطقي؛ لذا فإنه عد كل ما يتحرك بداخله صوتًا لله، وخلط بين ما هو ديني وما هو دنيوي.

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول** بعنوان: الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة.
- **المبحث الثاني** بعنوان: الرد عليه في وصفه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي.

والفصل الثالث عنوانه: تهافت قوله بالصوت الداخلي تفسيرًا للوحي.

أرصد فيه حوادث تاريخية صحيحة لواقع العلاقة بين النبي والقرآن، وواقع العلاقة بين النبي وحالة الوحي ذاتها. وأحلل تلك الحوادث. كما أناقش نولدكه فيما زعمه من آثار قال: إنها ترتبت على زعمه عد النبي صوته الداخلي وحيًا.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** تناقض القول بالصوت الداخلي مع واقع العلاقة بين النبي والقرآن.
- **المبحث الثاني:** تناقض القول بالصوت الداخلي مع حالة الوحي ذاتها.
- **المبحث الثالث:** تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المدعى.

وأسأل الله تعالى دوام التوفيق





الفصل الأول

نشأةُ الصوت الداخلي ودليلُ نولدكه عليه

تمهيد

أعالج في هذا الفصل الدليل الذي يطرحه نولدكه على ادعائه وجود صوت داخلي لدى النبي، وتفسيره لنشأته؛ وسيأتي في مبحثين:

المبحث الأول: مناقشة دليله على وجود الصوت الداخلي للنبي.

المبحث الثاني: تفسيره لنشأته.

***

المبحث الأول
مناقشة الدليل على وجود الصوت الداخلي المزعوم لدى النبي

يستدل نولدكه على وجود الصوت الداخلي عند النبي بدليلين؛

أولهما: أنه ﷺ كانت له صفة يحاول المسلمون إخفاءها هي أنه كان شديد الخوف؛ لكنه رغم ذلك وجدت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي.

وثانيهما: أنه كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي؛ يقول[1]:

"إن المرء كلما تعرف على روح محمد أكثر من خلال أفضل السِّيَر والقرآن، الذي هو المصدر الصحيح الذي ليس عليه غبار، ازداد ثقة أن محمدًا قد آمن بحقية رسالته وأنه عليه تبديل عبادة الأوثان الخاطئة عند العرب؛ وإلا فكيف قويَ على أن ينذر المكذبين برسالته متوعدًا إياهم بأشد عذاب جهنم؛ لدرجة أنه يوضح أيضًا أنه ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا؟".

ويستدل[2] على ما يسميه: خوف النبي من عدم التبليغ بالآيات: المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣؛ وهي بالترتيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

كما يزعم نولدكه أن النبي كان لديه في البداية خوف شديد هو الذي منعه من إعلان دعوته؛ لكن الصوت الداخلي شجعه على البلاغ؛ يقول[1]:

إضافة إلى هذا تأتي حقيقة يحاول المسلمون التغطية عليها، وهي أن محمدًا كان بطبعه ليِّن الجانب أو قل خوافًا؛ حيث لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته، لكن الصوت الداخلي *Innere Stimme* لم يدعه في راحة؛ لقد أوجب عليه أن يبلِّغ، وكان يشُدُّ من أزر شجاعته كلما وهنت برغم إهانات وتوبيخ أصدقائه القدامى".

أولًا: الرد على دليل نولدكه الأول:

إن نولدكه يزعم أن محمدًا ﷺ كانت له صفة يحاول المسلمون إخفاءها هي أنه كان شديد الخوف؛ لكنه رغم ذلك وجدت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي.

ونلاحظ هنا أن هذا الدليل بني على ثلاث قضايا واستنتاج.

الأولى أن النبي كان خوافًا، **والثانية** أن المسلمين أخفوا ذلك، **والثالثة** أنه كانت لديه قوة كبيرة لإنذار المشركين. واستنتاجه هو: أنه ﷺ ما دام كان يملك القوة الكبيرة على الإنذار بالرغم من كونه خوافًا؛ فلا بد أن يكون محركه هو الصوت الداخلي.

والقضية الثالثة مُسَلَّمة؛ وبالتالي فلا تعليق لنا عليها؛ لكن **الأولى والثانية** يحتاجان لرد:

أما القضية الأولى وهي دعوى كونه ﷺ خوافًا؛ فهي قضية كاذبة؛ لأن ما نقله شهود العيان عن شجاعته ﷺ وثباته وقوة تحمله يثبت عكس ذلك تمامًا:

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

أ- عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: **«كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»**[1]؛ فهل هذا خطاب خائف؟!

ب- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: **«لم تراعوا، لم تراعوا»**[2]؛ فهل هذا سلوك خائف؟

ج- عن عليٍّ رضي الله عنه قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا)[3]، وعنه كذلك قال: (كنا إذا احمَرَّ البأس ولقيَ القومُ القومَ اتقينا برسول الله فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه)[4]. فالنبي هو الأقرب للعدو والمسلمون يلوذون به وهو أشد المقاتلين يوم بدر بأسًا؛ فهل هكذا يكون الخائف؟ وإذا كان الخائف هكذا فكيف يكون الشجاع؟

د- عندما كان النبي وأبو بكر في الغار ويسمعان وقع أقدام المشركين على فم الغار - قبل أن يصرفهم الله عنه - قال أبو بكر للنبي: (لو نظر أحدهم تحت قدمه

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٦١٩ رقم (٣٦١٢).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١٠ ص٤٥٥ رقم (٦٠٣٣).

(٣) مسند أحمد ج١ ص٨٦ رقم (٦٥٤)، وانفرد به أحمد.

(٤) المستدرك ج٢ ص١٥٥ رقم (٢٦٣٣)، (قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح)، ومسند أحمد ج١ ص١٥٦ رقم (١٣٤٦).

لرآنا)؛ فيقول له رسول الله: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**»[1].. فهل هذا قول رجل خائف؟

هـ- كما أنه لم يكتف بممارسة مهمة القيادة في الحرب، بل مارس القتال بنفسه في معظم غزواته. وفي غزوة أحد لبس درعين من حديد[2] وكُسرت خوذته على رأسه، وأدمي وجهه وكسرت رباعيته، وشج وجهه، وجعل الدم يسيل عليه[3].

وبعد هزيمة المسلمين في أُحُد قاد في اليوم التالي سبعين من المسلمين وتبع المشركين المنتصرين[4] إلى منطقة حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام؛ دون أن يعبأ بتخذيل المثبطين. وكان ذلك بهدف ألا يطمع المشركون في المسلمين ويفكروا في الرجوع إلى المدينة[5]؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[6] فهل هذه الخطة وهذا السلوك يُتوَقَّعان من خائف؟

و- كما أنه يوم الحديبية، وقبل أن يمضي رسول الله ﷺ صلحها؛ جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة.. فأخذ يُخوِّفه من جَمْعِ قريش وما أعدت، وقال: هم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاءوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس؛ فإن أَظْهَرْ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل**

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص١٢ رقم (٣٦٥٣)، مع شرح ابن حجر له.

(٢) مسند أحمد ج٣ ص٤٤٩ رقم (١٥٧٦).

(٣) مسند أحمد ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨)، ج٣ ص٩٩ رقم (١١٩٧٤). وسنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٣٦ رقم (٤٠٢٧) وقال: في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٣٧٤ رقم (٤٠٧٧).

(٥) تفسير الطبري وابن كثير للآيتين ١٧٢ - ١٧٣ آل عمران.

(٦) آل عمران: ١٧٢ - ١٧٣.

فيه الناس فعلوا؛ وإلا فقد جموا[1]، وإن هُم أَبَوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[2] ولينفذن الله أمره»[3].

فالرسول هنا لا يؤثِّر فيه التخذيل والتخويف، ولديه من الثبات والتوازن النفسيين ما يجعله يعلن - بشكل عفوي وفي كلمات قليلة - عن نيته زيارة بيت الله، ورغبته في السلم والصلح أو الهدنة وإظهار محاسنهما، والتنبيه لخطورة الحرب مع الاستعداد لها إن فرضتها قريش، والاستعداد الشخصي منه أيضًا أن يُقتل فيها؛ فهل هذه نفسية خائف؟ وهل هذه العروض المتوازنة تتفق ونفسية الشخص الخائف؟ فأين هو النبي الذي وصفه نولدكه بأنه كان بطبعه خوافًا؟

ز- عن يوم حنين يروي شهود عيان كثيرون، منهم: جابر بن عبد الله؛ أنهم في هذه الغزوة؛ وفي عماية الصبح؛ فوجئوا بأعدائهم؛ وقد كمنوا لهم في شعاب واد من أودية تهامة وفي أجنابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا؛ قال: فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: **«إليّ أيها الناس، هلم إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»**[4].

ومن أولئك الشهود كذلك: أَنَس بْن مَالِكٍ وأبو عبد الرحمن الفهري اللذان يرويان أن المسلمين لما ولَّوْا يوم حنين إثر مفاجأة المشركين لهم في عماية الصبح؛ نادى فيهم رسول الله: **«يَا عِباد اللَّهِ أَنَا عَبدُ اللَّهِ وَرَسولُه، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنَا عَبدُ اللَّهِ وَرَسولُه»**[5].

ومنهم أيضًا البراء بن عازب الذي يسأله رجل قائلًا: يا أبا عمارة، أَوَلَّيْتُم يوم

(١) استراحوا من جهد الحرب.

(٢) السالفة: صفحة العنق، والمراد يُقتل.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٣٣٠ رقم (٢٧٣٢).

(٤) مسند أحمد ج٣ ص٣٧٦ رقم (١٥٠٦٩).

(٥) مسند أحمد ج٣ ص١٩٠ رقم (١٣٠٠٠)، وج٥ ص٢٨٦ رقم (٢٢٥٢٠).

حنين؟ قال البراء: أما رسول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ؛ كان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بعنان بغلته، فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**، فما رئي من الناس يومئذ أشد منه[1].

فهنا نجد أن جنود النبي؛ رغم كثرة عددهم، ونظرًا لعنصر المفاجأة الذي أحسن أعداؤهم استغلاله؛ ساد بينهم الهرج والمرج، وانهزموا راجعين، واستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد – حسب تعبير جابر بن عبد الله – ولم يبق حول النبي منهم أحد؛ وأحاط الأعداء بهم من كل جانب؛ ثم يختار النبي في أثناء معركة مثل هذه وفي أتونها؛ أن ينادي بأعلى صوته داعيًا الناس إليه باسم النبوة، ليعيد من جديد تنظيم صفوفهم، والكرة بعد الفرة، دون أن يبالي أن صوته قد يكشف مكانه؛ فيكون وصول أعدائه – المحيطين به – إليه أسرع من وصول جنوده المتفرقين البعيدين عنه المأخوذين من هول المفاجأة.

وأسأل الآن من يتجرأ ويرمي رسول الله بالخوف: هل هذا قرارٌ لقيادة خائفة؟ وهل توجد الآن قيادة سياسية أو ميدانية تختار طوعًا أن تفعل مثل ما فعل النبي في ظرف مشابه؟!

وكيف خفيت كل تلك الشواهد من التاريخ الصحيح عن نولدكه القارئ المدقق؟ أم أنه لا يتوقف عند ما يعارض رؤاه المسبقة؟

أما القضية الثانية وهي دعواه أن المسلمين أخفوا كونه ﷺ خوافًا؛ فمردود عليها بالآتي:

أ- ما دمنا انتهينا إلى أن الخوف لم يكن صفة لرسول الله ﷺ؛ وأثبتنا عكس ما ادعاه نولدكه؛ فيحق لنا أن نتساءل:

من أين جاء نولدكه بأن النبي كان خوافًا بطبعه؟ هناك احتمالان:

إما أن يكون قد قال هذا مجرد انطباع دون الرجوع للروايات الإسلامية؛ وبالتالي لا يُعتد بقوله لمخالفته الروايات الصحيحة كما مر.

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص١٦٤ رقم (٣٠٤٢).

وإما أن يكون قد اعتمد في هذا على رواية من روايات المسلمين؛ وبالتالي فلا يصح إذن ما زعمه من أن المسلمين حاولوا التغطية على أن النبي كان "خوافًا بطبعه، وأنه لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته..".

ب- إن زعم أن المسلمين أخفوا شيئًا من صفات رسول الله، أيًا ما كان المخفي؛ فهو زعم متهافت؛ وذلك لسبب يسير هو أنه ما كان لديه شيء يستحيي المسلمون عند إظهاره حتى يجتهدوا في التغطية عليه وإخفائه.

وبشكل عام فإن دعوى إخفاء المسلمين بعض الأشياء بشأن النبي هي دعوى كثيرًا ما تلوكها ألسنة الباحثين الغربيين عندما يفاجئون أن الروايات عن النبي ليس فيها ما يشينه في هذا الشأن أو ذاك؛ لذا فبدلًا من أن يستنتج المستشرق أن مقتضى ذلك أنه لم يكن في حياته ﷺ ما يشين؛ فإنه يدعي أن المسلمين أخفوا كل ما يشير إلى نقص مزعوم له ﷺ.

وأقول: إنه على فرض وجود مثل تلك الأشياء لديه ﷺ؛ لما أمكن أحدًا إخفاؤها حتى إن أراد؛ لأن النبي لم يكن شخصية هامشية في مجرى التاريخ والأحداث؛ بل كان فضلًا عن كونه نبيًا؛ شخصية عامة ملأ السمع والبصر؛ ولم يكن له مثل ما لقادة هذه الأيام من دوائر مقربة تحجب عن الناس ما لا يراد كشفه؛ بل كانت حياته وصفاته وسائر أقواله وأفعاله مرصودة من الناس في غير تجسس، ويعتبرون - بحق - نقلها للناس بابًا للتقرب إلى الله، لدرجة أن زوجاته كذلك نقلن لنا مواطن الأسوة في حياته ﷺ الخاصة كزوج.

كما أنه ﷺ ما كان يجهله أحد من معاصريه، واتسعت شبكة علاقاته ﷺ بعد الإسلام لدرجة يصعب معها السيطرة على ما يقال بشأنه، ولم تقتصر على دوائر قريبة منه موالية له؛ بل تعدت إلى خصومه وأعدائه. لذا فمن المستحيل مع كل هذا أن ينجح أحد في إخفاء أية حقيقة بشأنه، وبخاصة أنه لم تخل القرون الإسلامية الأولى من رافضين

للإسلام كارهين[1] له متتبعين لما يصرف الناس عنه مما يجعل أي محاولة للإخفاء، عبثًا لا طائل منها.

عودة إلى دعوى الخوف:

إن نولدكه لم يأت لنا بمثال واحد حاول المسلمون إخفاءه بسبب أنه يثبت اتصاف رسول الله بالخوف. لكن إذا حاولنا نحن أن نبحث عما يمكن أن يُشعر بوجود ذلك الخوف الذي يدعيه نولدكه للنبي لم نجد سوى رواية واحدة أوردها البيهقي في السنن الكبرى[2] وفيها:

"عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: **«عرفتُ أنّي إنْ بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره؛ فَصَمَتُّ عليها؛ فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أَمَرَكَ به ربك عذبَك ربك»**.

ووجود هذه الرواية في حد ذاته رد على اتهام نولدكه للمسلمين بمحاولات الإخفاء التي زعمها.

لكنها على الرغم مما تُشعر به لا تشهد لنولدكه في دعواه أن رسول الله خاف أولًا من تبليغ دعوة الله، وصوته الداخلي هو الذي حركه للتبليغ؛ وذلك لأن الرواية – إن

(١) يمكن الإشارة هنا إلى مجادلة البطريرك يوحنا اليعقوبي للصحابي عمرو بن العاص فاتح شمال سوريا ومصر، وكذلك إلى يوحنا الدمشقي الذي نشر رسالة تساعد المسيحي على أن يرد على العربي المسلم في جداله حول الدين، وعلى الرغم من ذلك كان الخلفاء الأمويون يستخدمونه في أعمال الدولة؛ وفي هذا إشارة – كما يقول أودين أ. كالفبرلي – إلى سماحة المسلمين، "ومن ذلك ما حدث في مجلس المأمون ببغداد سنة ٨٦١م حين جلس عبد المسيح بن إسحاق الكندي يجادل عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وأخذ كل منهما يدافع عن دينه في أدب وهدوء" راجع في ذلك: أودين أ. كالفبرلي: مقال (الدين الإسلامي)؛ ضمن كتاب (الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته) تحرير ت. كويلرنج.

(٢) ج٩ ص٧ رقم (١٧٥٠٤).

صحت - تُفصح عن تخوف لحظي لم يدم طويلًا؛ إذ سرعان ما نزل جبريل للنبي يحذره من عدم التبليغ.

ولا يعنينا في قليل أو كثير إنكارُ نولدكه نزولَ جبريلَ وجعلُه - بلا أدنى مبرر من تاريخ الأنبياء أو منطق العقل - صوتَ محمد الداخلي بدلًا منه. فلكلٍّ عقيدته التي نَكِلُ أمرها لله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

ولقد عاش محمد ﷺ أربعين سنة خالي الذهن من التفكير في مشكلات دينية قبل نبوته، وقال الله يخاطبه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[2]؛ فلا ينقص من قدره أن يشعر ببعض الحذر حين يكلف بمبادأة قومه بما يكرهون وتبليغهم رسالة الله التي تخالف ما هم عليه وتدمغه بالبطلان.

ولأن الخوف الفطري متوقع؛ فقد وجدناه عند أنبياء آخرين قبل محمد ﷺ:

يحكي القرآن عن موسى وهارون عليهما السلام أنهما عند التكليف بإنذار فرعون قد: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3]. وقال تعالى بشأن موسى أيضًا: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4]

ولا ضير في ذلك، لا لمحمد ولا لغيره من الأنبياء، فهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر لكن الله يثبتهم.

لكن على الرغم من هذا فلم يستمر هذا التخوف اللحظي المؤقت - كما في حالة موسى وهارون - بل زال تمامًا بمجرد تحذير جبريل للنبي؛ ولذا فإن نفس المصدر، وهو سنن البيهقي الكبرى، يأتي قبل الرواية المذكورة بأخرى تفيد قيام النبي بواجب التبليغ خير قيام امتثالًا للآية المذكورة؛ هذه الرواية هي:

---

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٧.

(٢) الشورى: من الآية ٥٢.

(٣) طه: ٤٥، ٤٦.

(٤) طه: ٦٧، ٦٨.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**وا صباحاه**». فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. قال: فاجتمعوا إليه، فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل؛ أكنتم مصدقي؟**». قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». قال: فقال أبو لهب: تبًا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[1]، وقال: رواه البخاري ومسلم[2].

مرة أخرى أتساءل: هل هكذا يكون تبليغ الخائف؛ وهل هذه نفسية خائف يعاني من صراع داخلي مع نفسه: يبلغ أو لا يبلغ، إلى أن أجبره صوته الداخلي أن يبلغ؟!

وأما استنتاجه؛ فلقد ذهب نولدكه إلى أنه ما دام النبي ﷺ كان يملك القوة الكبيرة على الإنذار على الرغم من كونه خوافًا؛ فلا بد أن يكون محركه هو الصوت الداخلي.

فاستنتاجه أن الصوت الداخلي هو الذي حرك النبي للتبليغ غير مُسَلَّمٍ؛ لبطلان إحدى مقدمتيه وهي كونه خوافًا.

ثم إن هذا الاستنتاج إنشائي، بمعنى أن نتيجته غير متضمنة في مقدمتيه[3]؛ فليس (كون الذي يحرك محمدًا ﷺ هو الصوت الداخلي) مُتضَمَّنًا بالضرورة في كونه (يبلغ وهو خائف). وبالتالي فإن افتراض نولدكه الصوت الداخلي كتفسير وحيد لتبليغ النبي على الرغم من كونه خائفًا[4] هو تحكم[5]؛ لأنه قد يكون هناك محرك آخر غير الصوت الداخلي الذي يفترضه نولدكه.

---

(١) المسد: ١.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٧ رقم (١٧٥٠٣). والبخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٧٣٧ رقم (٤٩٧١).

(٣) راجع: د. عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ١٩.

(٤) على فرض ثبوت خوفه. وهو غير ثابت.

(٥) لا يخضع للقوانين العقلية ويصدر من غير دليل، راجع: المعجم الفلسفي، إصدار مجمع اللغة العربية ص٤٠، ٤١.

لماذا لا يفترض نولدكه كتفسير: أن الله هو الذي قوى محمدًا على التبليغ، وأيده، وربط على قلبه، كما فعل مع كل الأنبياء؟

ثانيًا: الرد على دليل نولدكه الثاني:

إنه يزعم أن النبي كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ ويدعي أنه لا يمكن تفسير تبليغه دعوة الله إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي. ويستدل[1] على ما يسميه: (خوف النبي من عدم التبليغ) بالآيات الكريمة: [المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣] وهي بالترتيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

وأقول: لم يكن إعلان القرآن خوف النبي من عذاب الله متعلقًا فقط بعدم تبليغه قومه، بل كان متعلقًا بكل ما فيه معصية لله تعالى:

أ- فقد بينت آيات سورة يونس أمر الله أن يقول للمشركين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وذلك حين عرضوا عليه أن يأتي بقرآن غير القرآن أو يبدله، ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[2].

ب- وقد جاء قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في سورة الأنعام تعقيبًا على أمر الله له أن يستنكر اتخاذ ولي غير الله، وأن يكون أول من أسلم، وألا يكون من المشركين؛ ومن ثم فهو يخاف من معصيته في ذلك: ﴿قُلۡ

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢.

(٢) يونس: ١٥.

أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]

ج- وجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في سورة الزمر تعقيبًا على أمر الله له أن يقول لهم: إنه مأمور بإخلاص العبادة لله وأن يكون أول المسلمين؛ ومن ثم فهو يخاف من معصيته في ذلك، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

د- إذن فليس في آيات ثلاث من الأربعة التي أتى بها نولدكه ما يدل على أنها تبين أن "النبي ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا" كما ادعى نولدكه.

والآية الوحيدة التي تأمر رسول الله بتبليغ ما أنزله الله إليه هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

هـ- لكن المفاجأة هنا أن هذه الآية مدنية، نقل القرطبي[3] الإجماع على مدنيتها، وكذلك سورة المائدة كلها، وقال ابن كثير[4]: (إنها مدنية ومن أواخر ما نزل).

والعجيب أن نولدكه نفسه يرفض أي قول بمكيتها ويخطئه، يقول[5]: "ورد بتأثير تأويلات خاطئة أن الآية [٧١ من سورة المائدة][6] واحدة من أقدم الآيات المكية، ولا قيمة لهذا عندنا"

---

(١) الأنعام: ١٤ - ١٦. (٢) الزمر: ١١ - ١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، المجلد ٣ ج٦ ص٣٠، ٢٤٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٧٤.

(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣٢ وهامش ٢ بنفس الصفحة.

(٦) حسب ترقيم فلوجل.

"Ohne Gewicht für uns sind die ausfalschen Deutungen geflossenen Erklärungen von V. 71. z. B. er sei einer der ältesten mekkanischen Verse".

ويستشهد بموقف السيوطي من الرواية (التي تربط نزولها بحراسة أبي طالب ورجال من بني هاشم للنبي) حيث يسبقها السيوطي بوصفها أنها من الغريب يقول: (ومن غريب ما ورد في سبب نزولها)[1].

فكيف يتفق قول نولدكه بمدنيتها مع إيراده إياها لبيان نشأة الصوت الداخلي لدى النبي في بداية دعوته في مكة؟!

وعلى ذلك لا يكون لهذه الآية علاقة ببداية الدعوة حيث مورد دعوى نولدكه.

لكن أيًا ما كان الأمر فليس فيها ثمة دليل على أن خوف رسول الله من عذاب الله إن لم يُبَلِّغ رسالته كان مصدرَه صوت داخلي نابع منه.

كما أن ذات الآية تحمل دليلًا للرد على نولدكه؛ فلقد وعد الله فيها رسوله ﷺ أنه سيحفظه من كيد كل الناس فلا يقدر أحد أن ينال من حياته أو يصل في إيذائه لدرجة القتل. ولقد أنشأ هذا الوعد لدى النبي ثقة لا حدود لها في أن الله حافظه ليبلغ دعوته.

ولقد انعكست هذه الثقة على تصرفاته؛ فمن ذلك ما روى الترمذي[2]: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «**يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله**». فهكذا أمر رسول الله من كانوا يحرسونه بأن يتركوه في حماية الله الذي وعده بحفظه. ولا يمكن أن يجازف النبي في أمر خطير كهذا.

---

(١) راجع السيوطي: أسباب النزول ١٣١.

(٢) السنن ج٥ ص٢٥١ رقم (٣٠٤٦). قال الترمذي: حديث غريب، و قال الشيخ الألباني: حسن. والحاكم في المستدرك ج٢ ص٣٤٢ رقم (٣٢٢١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح.

وبالفعل أنجز الله لرسوله ما وعده به؛ فَحَفِظَهُ - كما قال ابن كثير[1] "من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة ليلًا ونهارًا بما خلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب؛ إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا من قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية؛ ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها. ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه. فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذًى يسيرًا ثم قيض الله له الأنصار؛ فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة - فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود. وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء. ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه".

ولقد جاء في البخاري[2] أن جابر بن عبد الله حدث أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ "فنزل تحت شجرة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله»، (ثلاثًا) ولم يعاقبه وجلس".

فرغم تمكن الأعرابي من رسول الله إلا أنه يراجعه ثلاثًا. وهذه المراجعة يؤخذ منها كما يقول ابن حجر[3] "أن الله سبحانه وتعالى منع نبيه ﷺ منه؛ وإلا فما أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله". كما أن النبي ﷺ لم يزد عن أن قال: «الله»، أي هو الذي يمنعني؛ وفي ذلك - كما يقول ابن حجر[4] أيضًا - "غاية التهكم به وعدم المبالاة به أصلًا".

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٧٥.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٩٦ رقم (٢٩١٠).

(٣) الفتح ج٧ ص٤٢٧.

(٤) الفتح ج٧ ص٤٢٧.

وأُتِي النبي ﷺ برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال النبي ﷺ: **«لم تُرَعْ لم تُرَعْ؛ ولو أردتَ ذلك لم يسلطكَ الله عَليَّ»**[1].

إن خوف رسول الله من عذاب الله إن هو لم يبلغ رسالته؛ لم يكن مصدره صوت النبي الداخلي، بل كان مصدره وحي الله تعالى إليه، وذلك وفقًا للحديث الذي مرَّ وفيه قول جبريل للنبي: **«فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أَمَرَكَ به ربك عذبك ربك»**.

ثالثًا: خلوة النبي ليست بهدف تحصيل النبوة:

يفهم من كلام نولدكه هنا أن النبي كان يقصد بخلوته تحصيل النبوة؛ وهذا في الحقيقة رأي بعض المستشرقين، حيث يدعي وليم موير أن خلوة النبي قضاها "مفكرًا في مصير قومه، ومشككًا في عبادتهم وفي التعاليم اليهودية والنصرانية التي لم ترض شعوره الديني، والتي كانت تضغط بشدة على عقليته، وهذه الأمور مجتمعة قادته إلى الوحدة في غار حراء يتأمل مفكرًا في إيجاد حلول لها، وأحيانًا كانت زوجته الوفية ترافقه إلى هذا المكان، وبدلًا من أن تطمئنه هذه الخلوة والوحدة وتحد من قلقه جعلته أكثر قلقًا وأكثر تلهفًا على الوصول إلى ما يطمئن ضميره، وأصبح خائفًا من أن يدركه الموت كما أدرك زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يصل إلى الحقيقة التي يبحث عنها"[2].

والحق أن النبي لم يكن يقصد بخلوته القصيرة تحصيل النبوة؛ لأننا نلاحظ أن النبي طبقًا لحديث عائشة (حُبِّب إليه الخلاء)؛ مما يعطي دلالة على عدم كونه فعلًا مقصودًا مارسه النبي بهدف تحصيل النبوة؛ وإنما كان تقديرًا وعناية من الله يهيئانه لأن ينزل عليه جبريل في إحدى هذه الخلوات.

فلم يدخل النبي نفسه بالخلوة في مرحلة إعداد مقصود، ولم يكن يسير بها سيرًا حثيثًا

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص٤٧١ رقم (١٥٩٠٨).

(٢) *life of Mahomet p57* نقلًا عن د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج٣ ص١٢٦.

وبخطى محكمة لاستجلاب الوحي[1]. ولم تأت رواية واحدة عن واحد من المؤمنين أنه كان ينتظر هذا الوحي أو يعمل له.

ولو كان النبي قاصدًا الإعداد؛ لما فوجئ بالطارئ الجديد الذي أدخل عليه الروع.

إن محمدًا لو كان قد دخل بخلوته في مرحلة إعداد مقصود هادف عبر الرياضات والتأمل؛ لكان استقباله للوحي استقبال الساعي لكسبه المنتظر المتشوق لشيء متوقع عليه ولما قال: «**لقد خشيت على نفسي**»[2].

إن عنصر المفاجأة البادية في خشية النبي على نفسه عند فجأة جبريل له في الغار يؤكد أن النبي لم يكن يُعد نفسه لشيء، ولم يكن ينتظر تحولًا جديدًا في حياته، ولم يكن يهيئ نفسه لهذا الحادث؛ وإلا لما خافه على نفسه لحظة حصوله. لأن النفس المرتقبة لشيء الباحثة عن كمال الاستعداد لقدومه لا تخشاه حين يحدث.

يقول مالك بن نبي: (ليس هناك من سبب لأن ننسب للصادق الأمين نية مبيتة للتأمل في مشكلة ميتافيزيقية)[3]. (إن المشكلة الغيبية لم تساور ضميره؛ فقد كان عنده حلها وجزء من هذا الحل إلهامي وجزء آخر موروث لأن إيمانه بإله واحد إنما يأتيه من الجد البعيد إسماعيل)[4].

لكن عدم قيام النبي بخطوات إعداد مقصود لنفسه لا يعني أن شخصيته لم تكن مؤهلة روحيًا وبدنيًا لقبول الوحي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾[5]. ويقول: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[6]؛ لكنه يعني أن هذا الاستعداد ليس كسبيًا صادرًا من نفس

---

(١) إن كان ذلك ممكنًا أصلًا وهو في التصور الإسلامي غير ممكن.

(٢) راجع في الجزء الأول من هذه الدراسة معنى خشية النبي على نفسه.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١١٩.

(٤) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٢٢.

(٥) الأنعام: ١٢٤.

(٦) الحج: ٧٠.

النبي وجهوده. وهذا في عقيدة الإسلام يصدق على كل الأنبياء وليس على محمد ﷺ وحده.

* * *

المبحث الثاني
تفسير نولدكه لنشأة الصوت الداخلي المزعوم للنبي

إن نولدكه يفسر نشأة ما يدعيه للنبي من صوت داخلي بأن النبي دخل في خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار أهل الكتاب؛ فنشأ صوت داخلي ظنه النبي وحيًا من الله.

وهي دعوى كما نرى مركبة من عدة قضايا:

القضية الأولى: أن فترة الخلوة بغار حراء كانت طويلة.

الثانية: أن النبي كانت لديه أفكار الغرباء.

الثالثة: أن هذه الأفكار تفاعلت بداخله بسبب الخلوة الطويلة، فنشأ عن ذلك التفاعل، صوت داخلي.

***

ولنناقش الآن أولى هذه القضايا؛ وهي أن مدة الخلوة بغار حراء كانت طويلة، فنقول:

١- إنه لم يثبت أن المدة التي كان رسول الله يتحنث أو يخلو بنفسه فيها قبل البعثة كانت طويلة؛ فقد جعلها عبد الله بن الزبير شهرًا في السنة؛ قال[1]: (كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهرًا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية).

وروى ابن إسحاق[2] من مرسل عبيد بن عمرو بن قتادة الليثي: (فكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة). لكن لم تحدد أيٌّ من الروايتين: في أي سنة من سني عمره بدأ رسول الله هذه الخلوة.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٠٠، وانظر: السيرة النبوية: ابن هشام ج١ ص١٤٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٤٧.

وبين ابن حجر أن هذا الشهر لم يكن انقطاعًا كاملًا، بل كان يقسمه النبي إلى مراحل؛ قال[١]: (فقد كان يتزود لبعض ليالي الشهر، فإذا نفد الزاد رجع إلى أهله قدر ذلك؛ من جهة أنهم لم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب زادهم اللبن واللحم وذلك لا يدخر منه كفاية الشهور لئلا يسرع إليه الفساد، ولا سيما وقد وصف بأنه كان يطعم من ورد عليه).

يظهر لنا أنه حتى لو كانت مدة اعتكاف النبي ﷺ شهرًا كل سنة – على النحو الذي قاله هؤلاء – فإنها لا يمكن أن تكون خلوة طويلة، وذلك من ثلاثة وجوه:

أ- إن القائلين بهذا الرأي لم يحددوا: في أي سنة من سني عمره بدأ النبي يخلو بنفسه شهرًا في السنة؛ إذ من الممكن أن يكون ذلك بدأ في الحصول فقط في السنوات الخمس التي سبقت البعثة. وحتى لو ذهبنا بعيدًا وافترضنا جدلًا – كما يقول د. محمد عبد الله دراز[٢] – (أن هذا الشهر من الاعتكاف قد داوم عليه الرسول في كل عام منذ زواجه وحتى نزول الوحي، يبقى أن نلاحظ أن أحد عشر من اثني عشر شهرًا من سني حياته في هذه الفترة قد قضاها في محيط اجتماعي وأمام أعين مواطنيه).

ب- من المعروف أن رسول الله كان سنه خمسًا وثلاثين سنة عند بناء الكعبة[٣] وهذا يسهم بشكل مباشر في تجلية الأمر هنا؛ إذ يتضح منه أنه لم يكن منعزلًا عن الحياة بهذا الشكل الذي تفترضه دعوى نولدكه عن الخلوة الطويلة.

ج- كما أن أعباءه المعيشية زوجًا ووالدًا لا تتيح له هذه العزلة الطويلة حتى لو أرادها؛ فلقد تزوج محمد ﷺ خديجة وأنجب منها في الخمس عشرة سنة التي سبقت البعثة ستة أولاد: زينب ورقية وأم كلثوم اللائي ولدن ونشأن

(١) ابن حجر: فتح الباري ج١٢ ص٣٥٥ – ٣٥٦.

(٢) د. محمد عبد الله دراز في مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ١٤.

(٣) أنساب الأشراف: البلاذري ج١ ص٩٩.

وتزوجن قبل البعثة[١]، وفاطمة التي ولدت قبل البعثة بخمس سنوات[٢] ثم القاسم وعبد الله اللذين ولدا قبل البعثة كذلك، هذا بالإضافة لرعايته لعلي بن أبي طالب. فهل يمكن مع كل هذه الأعباء أن يلجأ محمد ﷺ للعزلة الطويلة؟

إن إحدى الروايات المتعلقة ببدء الوحي يذكر فيها أن خديجة انتابها قلق على محمد ﷺ فأرسلت رسلها في طلبه[٣]؛ فإذا كان هذا القلق ولَّده اعتزالُ مرة واحدة؛ فهل يتصور أن يكون ما يدعيه نولدكه من عزلة طويلة صحيحًا؟

د- ثم ألا يعد القول بالعزلة الطويلة متناقضًا منهجيًّا مع المقولة الاستشراقية الدائمة التي ما فتئ المستشرقون يرددونها؛ وهي أن رسول الله كان يعمل بالتجارة المتجولة وأنه استفاد معلومات كتابية كثيرة من طول تطوافه. فليستقروا أولًا على اتهام: هل كان طوافًا جوالًا أو كان منعزلًا؟

٢- إن الروايات الأقوى المتعلقة بهذا الأمر هي التي يجب أن تُعتد في الحكم؛ وهي:

قوله ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث؛ إني لأعرفه الآن**»[٤].

وقوله لخديجة قبل نزول جبريل: «**إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا**»[٥].

وحديث عائشة: (أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم

(١) راجع د. عائشة عبد الرحمن: تراجم سيدات بيت النبوة: مبحث الأخوات الأربع من كتاب: بنات النبي.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٨/ ١٩ دار صادر بيروت.

(٣) من مرسل عبيد بن عمرو: ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٤٧.

(٤) مسلم بشرح النووي مجلده ج١٥ ص٣٦ رقم (٢٢٧٧).

(٥) مسند أحمد ج١ ص٣١٢ رقم (٢٨٤٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث[1] فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ..) الحديث.

كما ورد حديث يبين أن وحي الرؤية المنامية الذي سبق الخلوة كان قبل ظهور جبريل (بستة أشهر) كما روى البيهقي[2].

فهذه الأحاديث تقدم لنا في جملتها الترتيب التالي:

مرحلة ما قبل الوحي:

- كان يسلم عليه الحجر.
- كان يرى الضوء ويسمع الصوت.

مرحلة بداية الوحي:

- الوحي لرسول الله عبر الرؤيا الصالحة في النوم.
- تحقق رؤى النبي مثل فلق الصبح.
- حبب الله إلى رسوله الخلاء في غار حراء حيث يتعبد الليالي ذوات العدد.
- بعد ستة أشهر فَجَأَهُ جبريل وأنزل عليه: (اقرأ..).

إن ترتيب الخلوة هنا كان الخامس. فقد سُبق بسلام الحجر عليه ﷺ، ورؤيته للضوء، وسماعه للصوت، والرؤى المنامية الصالحة، وتحققها.

وما دامت الرؤى استمرت ستة أشهر وأعقبها نزول جبريل أثناء الخلوة؛ وما دامت الخلوة حببت إلى النبي بعد الرؤية الصالحة؛ فلا يمكن أبدًا أن تكون الخلوة أطول

---

(١) يتحنث: بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنيفية، وهي دين إبراهيم. والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة يتحنف بالفاء. (ابن حجر: الفتح ج١ ص٢٧).

(٢) نقلًا عن ابن حجر: الفتح ج١ ص٢٧.

من الستة أشهر هذه؛ بل لا بد أن تكون يقينًا أقل منها، وبالتالي لا يمكن أن تكون الخلوة طويلة كما ادعى نولدكه.

ولقد تحدثت رواية عائشة عن تعبد (الليالي ذوات العدد) وليس السنوات ولا الأشهر.

كما حدد رسول الله بنفسه المدة التي جاورها بحراء فلم تزد عن شهر؛ قال جابر بن عبد الله: أحدثكم ما حدثنا رسول الله. قال: **«جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدًا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدًا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء يعني جبريل عليه السلام فأخذتني رجفة شديدة...»**[1].

من هنا يقول د. دراز[2]: (تحدد المصادر الوثيقة جدًّا في الواقع تاريخ هذا الاعتكاف بالضبط بشهر قبل نزول القرآن. كما تحدد بدقة أكثر أن هذا الشهر تخللته عودة إلى منزله مرات عدة كيما يتزود، وقد سبقت هذا الشهر أيضًا رؤى واضحة كان يراها الرسول في منامه ثم ما يلبث أن يجدها حقيقة كفلق الصبح).

٣- هل الخلوة تفسر الوحي؟

إنه مهما كان طول الخلوة؛ فهي لا يمكن أن تقدم تفسيرًا للوحي على النحو الذي ادعاه نولدكه؛ وذلك للآتي:

إن نولدكه يزعم أن الخلوة أنتجت صوتًا داخليًّا ظنه محمد وحيًا.

لكن الإشكال الذي يعترض نولدكه هنا هو أنه ما دام قد أوجد بين الخلوة والوحي (الذي يسميه صوت النبي الداخلي) علاقة السببية؛ فيلزمه إذن أن تدوم الخلوة وتبقى ما دام الوحي ينزل. والوحي استمر ينزل على النبي حتى مات في السنة

(١) مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٢ ص٢٠٨ رقم (١٦١).

(٢) د. محمد عبد الله دراز في مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ١٤.

الثالثة والستين من عمره؛ أي ظل ينزل ثلاثًا وعشرين سنة وكان للقرآن - الذي هو أعظم الوحي - هذه الصفة كذلك، فقد نزل منجمًا[1]. لكن أقصى تقدير لدى نولدكه أن تلك الخلوة انتهت بنزول (اقرأ)؛ أي عند بلوغه ﷺ الأربعين. ولم يقل إن النبي استمر في الخلوة بعد النبوة. وهذا يصلنا إلى نتيجة هي أنه مهما كان طول مدة الخلوة قبل البعثة فلا تصل أن تكون تفسيرًا لوحي استمر في التدفق على النبي من علٍ طيلة تلك المدة الطويلة[2].

***

القضية الثانية: أن النبي كانت لديه أفكار الغرباء؛ ونولدكه يقصد بهم أهل الكتاب عامة واليهود خاصة. لكن لم يبين لنا نولدكه لماذا لم يلاحظ أحد من معاصري محمد ﷺ قبل البعثة وجود أفكار غرباء لديه إلى أن أتى نولدكه فاكتشفها بعد كل تلك القرون؟

---

(١) تحدث الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص٥٢-٦٢) عن تنجيم القرآن الكريم، فانتهى إلى ما ملخصه: أن القرآن الكريم نزل مفرقًا إلى أجزاء: آيات أو مقاطع أو سورًا؛ تثبيتًا لفؤاد النبي، وتيسيرًا عليه وعلى المسلمين المعاصرين في فهمه وحفظه، وتدرجًا في تربية الأمة، ومسايرةً للحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها، وتنبيهًا إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده الذي على الرغم من نزوله آحادًا مفرقة في أكثر من عشرين عامًا؛ مما يستلزم في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ إلا أنه من أوله لآخره محكم السرد قوي الاتصال متآلف البدايات والنهايات لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل. وهذا لا يمكن أن يتأتى لكلام بشر. ويقول أ. مالك بن نبي: (الظاهرة القرآنية ١٧٩): (الوحي القرآني ظاهرة مؤقتة أو خاطفة. ولقد نزلت الآيات منجمة: بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع، تتفاوت طولًا وقصرًا. ولقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي، وبخاصة عندما يحتاج أن يتخذ قرارًا يعتقد أنه من الواجب). وأغلب توجيهات العلماء مستمدة من الآيات الكريمة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

(٢) ومن هنا يقف (كون القرآن منجمًا) عقبة في وجه كل محاولة لجعله داخل دائرة الذات المحمدية؛ يقول أ. مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية ١٨٠): "ألم يكن من الممكن أن يتدفق (القرآن) جملة واحدة من العبقرية الإنسانية التي ربما يكون قد صدر عنها"؟

ولبيان ضلال هذه الدعوى أورد روايتين تبين أولاهما عدم قدرة النبي على حفظ كلام عربي حلو بليغ، وتبين ثانيتهما خلو ذهن النبي قبيل البعثة من الأفكار التي كانت تشغل ذهن الحنفاء:

فأما الأولى؛ فعن ابن عباس قال: لما قدم أبو ذر على النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر، ما فعل قس بن ساعدة؟**». قال: مات يا رسول الله. قال: «**رحم الله قسًّا! كأني أنظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه**». فقال أبو بكر: أنا أحفظه. قال: «**اذكره**»؛ فذكره؛ وفيه الشعر..[1].

وهنا نلاحظ أن رسول الله رغم إعجابه بحلاوة كلام قس إلا أنه لم يتمكن من حفظه. فهل يمكن أن يكون النبي لم يتمكن من حفظ كلام قس هذا؛ ويتمكن في ذات الوقت من حفظ كلام أهل الكتاب الغرباء (الذي لا يضاهي كلام قس في حلاوته وفصاحته وقربه إلى الحافظة العربية ولا يستطيع أهل الكتاب أنفسهم حتى الآن أن يحفظوه).

وأما الثانية؛ فإن زيد بن حارثة مولى النبي ورفيقه في غالب شؤونه قبل البعثة وبعدها يقول عن النبي قبيل البعثة بوقت وجيز جدًّا: أقبل رسول الله ﷺ وهو يسير مردفي في يوم حار من أيام مكة حتى إذا كنا بأعلى الوادي لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فحيًّا أحدهما الآخر بتحية الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا ابن عم! ما لي أرى قومك قد شنفوك؟**». فقال: أما والله إن ذاك لغير ثائرة كانت مني فيهم، ولكني كنت أراهم على ضلال، فخرجت أبتغي هذا الدين؛ فأتيت على أحبار يثرب فوجدتهم يعبدون الله، ويشركون به؛ فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فخرجت حتى أتيت أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به؛ فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فخرجت حتى أتيت أحبار الشام فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به. فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فقال لي حبر من أحبار الشام: إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله تعالى به إلا شيخًا بالجزيرة. فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له فقال لي: إن كل من رأيت على ضلالة؛ فمن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله تعالى ومن الشوك والقرظ. قال: فإنه قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج،

(١) الإصابة ج٥ ص٥٥١ وما بعدها رقم (٧٣٤٥).

قد خرج نجمه فارجع فاقصده واتبعه وآمن به. فرحلت فلم أُخْبَرْ بشيء[1].

وبتحليل هذه الواقعة نحصل على عدة نتائج مفيدة للغاية في نقطة بحثنا هنا.

نحن نلاحظ أن النبي سأل زيدًا عن سبب عداء قومه له، وأجاب زيد أن التماسه الدين الحقيقي كان وراء ذلك؛ فلو كان لمحمد نفس اهتمامات زيد لترتب على هذا أمران:

أولهما: أن يتعرض لنفس العداء الذي تعرض له زيد؛ وبالتالي لن يكون للسؤال وجه أو معنى؛ لأن توجيهه للنفس التي تتعرض لنفس الظروف حينئذ سيكون أولى من توجيهه للغير.

ثانيهما: أن يعرف كل منهما تلك الاهتمامات لدى الآخر؛ لأن هذا هو المتوقع عند تشابه الاهتمامات مع وحدة الموطن المتحققة لكل من زيد بن عمرو ومحمد ﷺ.

ونلاحظ أن حديث زيد بن عمرو عن محاولاته التماس الحقيقة لدى أهل الكتاب لم يسترع أي قدر من انتباه النبي، ولم يظهر منه ﷺ ما يشير إلى أن هذه المحاولة تمثل وجه اشتراك بينهما يستدعي التنسيق والتعاون؛ وفي هذا إشارة إلى خلو بال النبي من أي فكرة كتابية.

كما نلاحظ أن النبي لم يظهر منه حتى مجرد تشجيع زيد بن عمرو على مسلكه؛ ولا يمكن أن يكون هذا رد فعل من يحمل نفس الأفكار.

ونتساءل هنا: هل كان من الممكن أن يكون رد فعل النبي على هذا النحو الذي ظهر؛ لو كان لديه قبل البعثة أدنى حظ من أفكار أهل الكتاب التي يزعم نولدكه أن النبي كان يطوي عليها وقتئذ جوانحه[2]؟

---

(١) الآحاد والمثاني ١/ ١٩٩/ ٢٥٧ وورد كذلك في السنن الكبرى ٥/ ٥٤/ ٨١٨٨ والمعجم الكبير ٥/ ٨٦/ ٤٦٦٣، وأورده الحاكم في مستدركه ٣/ ٢٣٨/ ٤٩٥٦، وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. كما ورد في مسند أبي يعلى ١٣/ ١٧٠/ ٧٢١٢ وقال الشيخ حسين أسد: إسناده حسن.

(٢) أكتفي هنا بهذا الرد إلى أن أعالج في دراسة لاحقة الدعوى الاستشراقية ذائعة الانتشار عن تأثير أهل الكتاب على النبي والوحي.

القضية الثالثة: أن أفكار الغرباء بسبب الخلوة الطويلة تفاعلت بداخل النبي فنشأ عن ذلك التفاعل صوت داخلي.

وبرغم عدم التسليم بوجود خلوة طويلة وأفكار غرباء كما قدمنا؛ فإن نولدكه لم يفسر لنا كيف حدث التفاعل داخل نفس النبي لينتج الصوت الداخلي المزعوم. إنه يضعنا هنا أمام شبيه ما هو موجود في صياغة المعادلات الكيميائية على النحو التالي:

خلوة طويلة مر بها النبي + أفكار الغرباء (أهل الكتاب) + تفاعل "نولدكي" لا ندري كيف وقع؟ = صوت داخلي.

ولا ندري وفقًا لأي منطق وصل نولدكه لهذه النتيجة؛ وذلك للآتي:

١- لا يماري نولدكه أو غيره في حقيقة أنه كان يوجد في الجزيرة العربية أو في أطرافها وفي معظم المواطن التقليدية للمسيحية كثير من القساوسة والرهبان النصارى اعتزلوا الحياة في خلوة طويلة جدًّا لدرجة أنها استوعبت حياتهم كلها.

ففي بصرى من أرض الشام كان راهب يقال له: بحيرى[١].

وفي الحيرة: بَنَتْ هندُ بِنْتُ النعمان، أو أخته ديرًا، وترهبنت فيه وبقي لمدة طويلة معروفًا بعد الإسلام باسم (دير هند الصغرى)[٢].

كما أن الحالة المصرية[٣] تحديدًا؛ زاخرة بهذا النمط من الخلوة والاعتزال؛ حيث بدأت الرهبنة هروبًا مارسه بعض رجال الدين المسيحي القبط من ملاحقة الرومان الوثنيين أولًا، ثم المخالفين في المذهب المسيحي ثانيًا. وبدأت في نهاية القرن الثالث تأخذ شكل الظاهرة المتكررة. ومع الوقت أصبحت نمطًا في العبادة والتنسك. ووصل عدد الأديرة في مصر مع نهاية القرن العشرين إلى

(١) الطبري: التاريخ ج٢ ص٢٧٧.

(٢) د. حسين مؤنس تعليق هامش ص٢٤١ من كتاب جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام. وراجع: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج٤ ص٩٧.

(٣) راجع بشأنها: د. حسين كفافي: المسيحية والإسلام في مصر، فصل: الطريق إلى الرهبنة ٤٤-٦٢.

قرابة المائة دير على امتداد الخريطة المصرية؛ منها دير الأنبا أنطونيوس في الزعفرانة: غرب ساحل البحر الأحمر، وهو أقدم أديرة العالم، ودير الأنبا بولا: ثاني دير في العالم، ودير (أبو مقار الكبير)، ودير السريان، ودير مريوط غرب الإسكندرية، ودير الزجاج بنفس المنطقة. وفي صعيد مصر توجد أديرة كثيرة منها: الدير المحرق، ودير الأنبا بيشوي ودير (أبو فانا) ومار بقطر وأنبا صموئيل القلموني والأنبا يؤنس كامي. وبمنطقة المعادي بالقاهرة يوجد دير (شهران). وخرج من هذه الأديرة معظم آباء الكنيسة المرقسية المصرية: سبعون أبًا من أصل مائة وسبعة عشر.

٢- وبطبيعة الحال كانت لدى كل هؤلاء الأفكار المسيحية الأصلية كما تصوروها. ورغم ذلك لم يتم التفاعل الذي افترضه نولدكه في حالة النبي محمد ﷺ؛ ولم ينتج ذلك الصوت الداخلي الذي قال نولدكه: إنه جعل النبي محمدًا ﷺ يقع في حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب، وعده وحيًا صادرًا له من الله، وأجبره رغم الخطر والاستهزاء أن يتوعد المكذبين بأشد عذاب في جهنم، وجعله يعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا، وكان يعضد شجاعته كلما وهنت.

إنه رغم وجود مُدخلات معادلة نولدكه التي زعمها للنبي؛ إلا أن مخرجاتها لم تتحقق في حالة هؤلاء القساوسة والرهبان؛ وكان الأمر كالآتي:

خلوة طويلة مر بها الرهبان والقساوسة + أفكار (مسيحية أصلية كما تصوروها) + تفاعل نولدكي لا ندري كيف حدث؟ = لا شيء مما زعمه نولدكه في حالة النبي.

والتساؤل الآن: إذا كان وحي الله إلى نبيه الأمين محمد ﷺ لم يكن سوى نتاج خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (أهل الكتاب) فتكوَّن صوت داخلي لديه ظنه وحيًا؛ فلماذا لم يصل أولئك الرهبان والقسس لمثل ما وصل إليه محمد ﷺ رغم وجود نفس الظروف لدى الطرفين مع تميز الأُوَل بكونهم هم أصحاب أفكارهم المسيحية وليست غريبة عنهم؟

كما أن الخلوة بحراء لم تكن شيئًا ابتدعه محمد ﷺ، ولا شيئًا خاصًّا به لم يشركه فيه غيره، بل كانت أشبه ما تكون بسلوك عام مارسه كثير من القرشيين.

"كان إذا دخل رمضان خرج من يريد التحنث منها إلى حراء؛ فيقيم فيها شهرًا ويطعم من يأتيه من المساكين، حتى إذا رأى هلال شوال لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت، فكان رسول الله يفعل ذلك"[1].

وكان من بين من مارسه زيد بن عمرو بن نفيل الذي ذكروا عنه أنه "كان لا يذبح للأصنام، ولا يأكل الميتة والدم، وذلك قبل أن يبعث النبي، وكان الخطّاب قد آذاه حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل حراء"[2].

ويقول ابن حجر[3]: (وكأنه مما بقي عندهم من أمور الشرع على سنن الاعتكاف، وأن الزمن الذي كان يخلو فيه كان شهر رمضان، وكان جد النبي عبد المطلب يخلو فيه كذلك ويتبعه في ذلك من قريش من كان يتأله؛ ولذا لم تنازع قريش النبي في ذلك).

فإذا كان الأمر على النحو الذي ظهر لنا (بشأن خلوة الرهبان النصارى، وخلوة من كان يتأله من قريش)؛ فلماذا محمد وحده هو الذي يأتيه هذا الصوت الداخلي ويظنه وحيًا دون أن يأتي مثل ذلك لمن مروا بنفس التجربة الروحية؟

ولم يستطع نولدكه أن يميزه بوجود أفكار كتابية لديه؛ إذ إنها رغم كونها دعوى بلا دليل فإن رهبان النصارى لديهم أصول تلك الأفكار ولم يحصلوا الصوت الداخلي المزعوم.

***

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص١٠٥.

(٢) محمود شكري الألوسي: بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ج٢ ص٢٥١.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ج١٢ ص٣٥٥.



الفصل الثاني

دعواه افتقاد النبي ﷺ التجريد المنطقي

تمهيد

انتهينا في الفصل الأول إلى إبطال حديث نولدكه عن نشأة الصوت الداخلي المزعوم كتفسير لوحي الله إليه؛ بأن أبطلنا جميع ادعاءاته عن الخلوة الطويلة التي زعمها للنبي، وعن وجود أفكار غرباء لديه ﷺ. كما أنه لم يستطع في هذا الشأن أن يميزه ﷺ بوجود أفكار كتابية لديه هي التي أنتجت – بفعل الخلوة – الصوت الداخلي؛ إذ ظهر لنا أنها رغم كونها دعوى بلا دليل؛ فإن رهبان النصارى وبعض معاصريه من متألهي العرب كانت لديهم أصول تلك الأفكار ولم يحصِّلوا الصوت الداخلي المزعوم.

لكن نولدكه لا يمل من متابعة دعواه؛ فنراه يبحث عن سبب عد النبي ﷺ الصوت الداخلي المزعوم وحيًا، أو بمعنى آخر: يجيب عن سؤال:

لماذا نظر النبي إلى ذلك الصوت الداخلي على أنه قادم له من الله وحيًا؟

يجيب نولدكه على هذا في ضوء تصوره للنبوة بشكل عام؛ إذ هي عنده تصدر عن ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب و الإلهام القريب من الشعور والعقل النظري. وهذا الأخير لم يكن للنبي محمد حظ منه، لذا اعتبر أن شعوره الداخلي هو صوت الله؛ يقول[1]:

"لكن روح محمد مرتبطة بنقصين كبيرين يقللان من قدره: فإذا كانت النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب[2]، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري؛ فإن محمدًا كان ينقصه هذا الأخير[3] بشكل فادح[4].

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٢) في هذا الاتجاه يأتي قول هاملتون جب (اتجاهات ١١٦): "إن إمكانية نوع من البعث الفردي بعد الموت تتطلب خيالًا خصبًا جيدًا".

(٣) [النظر العقلي].

(٤) [هذا هو النقص الأول المزعوم].

وفي حين أنه كان يمتلك ذكاء عمليًّا شديدًا؛ لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه؛ فلقد كان ينقصه التجريد المنطقي بشكل رهيب[1]؛ لذا فقد عَدَّ كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان؛ بل انقاد للشعور الغريزي الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعتبر [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

وادعى نولدكه أن النبي عدَّ ذلك الصوت معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج عنه خلط النبي بين الديني والدنيوي، مُرجعًا الأمر لما زعمه من سذاجة النبي؛ قال[2]:

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام".

"إن مفكرًا ساذجًا مثل محمد كان يجب عليه أن يَعدَّ كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا".

إن الرد عليه هنا يقتضي أن نرد على أمرين:

أولهما: تصوره الخاطئ للنبوة.

ثانيهما: ما ذكره من تعليل في حالة النبي من مزاعمه عنه أنه يفتقد التجريد المنطقي (ساذج)، ويخلط بين ما هو ديني وما هو دنيوي. ومن هنا سيأتي هذا الفصل في مبحثين:

أولهما: الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة.

ثانيهما: الرد عليه في نفيه القدرة على التجريد المنطقي عن النبي.

***

(١) [وهذا هو النقص الثاني المزعوم].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

المبحث الأول
الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة

إن نولدكه مهما كان أمر اتجاهه النقدي؛ هو نتاج ثقافة يهودية مسيحية تقدم أدبياتها تصورًا مختلفًا للنبوة والأنبياء والوحي عن التصور الذي يقدمه الإسلام؛ فليس بمستغرب إذن أن يفهم النبوة - كما ذكر - على أنها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبقدرٍ مَا: العقل النظري.

وأبين هنا بعض ملامح الغبش في التصور اليهودي والمسيحي للنبوة، وكلام نولدكه في تفسيره لكل من النبوة والوحي، وأركز على جعل نولدكه النبوة في داخل المجال الذاتي للنبي، ثم أوضح تصور العقيدة الإسلامية للنبوة والوحي، وأجيب عن سؤال: هل يوافق أهل الكتاب على التفسير الذاتي للنبوة؟

بعض ملامح الغبش في التصور اليهودي والمسيحي للنبوة:

أ- في اليهودية[1] كَثُرَ عدد الأنبياء لدى اليهود، وكانوا يحاولون الوصول إلى النبوة كما يفهمونها ويمارسونها بأنواع من التريض والكسب. لنقرأ النص التالي من صموئيل الأول:

"فقال له: هو ذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم، كل ما يقوله يصير، لنذهب الآن إلى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التي نسلك فيها... وقال: هو ذا يوجد بيدي ربع شاقل فضة فأعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا. سابقًا في إسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله: هلم نذهب إلى الرائي، لأن

(١) سبق أن ذكرنا بعض تفاصيل بهذا الشأن في الجزء الأول لكن نعيدها هنا لأهميتها.

النبي اليوم كان يدعى سابقًا رائي "[١].

وفي صموئيل الأول: "ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودُفٌّ وناس وعود وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر... ولما جاءوا إلى هناك إذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ في وسطهم"[٢].

هؤلاء هم – مع الأسف – رجال الله والأنبياء الذين يريد نولدكه أن يحاكم وحي الله إلى النبي محمد ﷺ إلى أحوالهم؛ ولا يقبل منه إلا ما كان على شاكلتها.

ب- أما في المسيحية فالغبش يأتي من زاوية التناقض في النظرة للوحي لديهم؛ ففي حين تأتي نصوص تبين أن كل ما يقوله الأنبياء ليس من أنفسهم إنما هو من فعل الروح القدس وأن نبوتهم ليست كسبية؛ تأتي نصوص أخرى لتبين أن كل موحى إليه منهم يكتب حسب خواصه العقلية.

فمن النصوص الأولى قول بطرس: "عالمين هذا أولا أن كل نبوة الكِتاب ليست من تفسيرٍ خاصٍ لأنه لم يأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس"[٣].

كما أن الوحي أو الإلهام عند المسيحية الإنجيلية: "هو عمل روح الله القدس في العقل البشري الخاص بتأهيل الأنبياء والرسل وكتبة الأسفار المقدسة لإظهار الحق الإلهي بنوع خال أو معصوم من الغلط"[٤]، ولا يتأتى باكتساب فهو "فائق الطبيعة... لأنه غير ناشئ عن علم الإنسان ولا عن استعداده الطبيعي ولا عن ظروفه الخارجية، بل عن فعل الروح القدس فيه رأسًا؛ لغاية معلومة"[٥]، وأن

---

(١) صموئيل الأول ٩: ٦ – ٩.

(٢) صموئيل الأول ١٠: ٤ – ١٠.

(٣) ٢ بط ١: ٢٠، ٢١.

(٤) علم اللاهوت النظامي ١٠٢.

(٥) علم اللاهوت النظامي ١٠٣.

"كَتَبَةَ الكتاب هم آلات بيد الله، وأقوالهم معصومة من الغلط"[1] و"الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه، لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه"[2]، وأن الموحى إليهم لم يكن لهم دور في الوحي بل "كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية"[3].

ومن النصوص الأخرى ما جاء في **قاموس الكتاب المقدس** عن الوحي أنه: "حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين لاطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئًا من شخصياتهم، فلكلٍّ منهم نمطه في التأليف وأسلوبه في التعبير"، وأن الوحي لا يوقف قُوَى الموحَى إليهم "مدة وجوده؛ ولا ينزع ما امتاز به أحدهم عن الآخر من السجايا والقوى؛ فالعامي منهم تكلم كلام العامي كعاموس، والعالم كلام العالم، وذو العواطف اللينة ومحب التأمل حسب طبيعته كيوحنا، وذو العقل المنطقي كلامَ المنطقي المائل إلى إيراد الأدلة بكل ضبط كبولس؛ أي أن كلًّا كتب حسب خواصه العقلية؛ ولذلك نرى في جميع الأسفار المقدسة ما يدل على خواص كتبتها كأنهم لم يكونوا تحت سلطان الوحي، ومع كل ذلك كانوا آلات حقيقية في يد الروح القدس"!![4].

فالعهد القديم إذن ينظر إلى النبي على أنه مجرد (رائي) يتلقى أجرًا نظير محاولة التعرف على الغيب الشخصي!! ويرى أن النبوة تكتسب بمجرد الجلوس في زمرة أناس يسميهم العهد القديم (أنبياء) نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودُفٌّ وناس وعود وهم يتنبأون، ومن ثم تحل روح الرب على الجالس فيتنبأ معهم، ويتحول إلى رجل آخر!!

---

(١) علم اللاهوت النظامي ١١٢، ويوحنا ١٠: ٣٥.

(٢) علم اللاهوت النظامي ١١٣.

(٣) علم اللاهوت النظامي ١٠٤.

(٤) علم اللاهوت النظامي ١٠٤. وعلامتا التعجب من عندي.

والتصورات المسيحية عن الوحي والنبوة متناقضة كما رأينا، وهي ليست بعيدة عن تصور العهد القديم كذلك؛ لأنهم يدخلونه في اعتقادهم.

***

كلام نولدكه في تفسيره للنبوة:

إننا نجد قوله[1]:

"Können wir gleich nicht leugnen, daß sich auch bei vielen andern Völkern hier und da etwas der Prophetie ähnliches zeigt, so ist doch allein bei den Israeliten das Prophetentum aus sehr primitiven Anfängen eine das ganze Gebiet der Religion und des Staats bewegende und bestimmende Macht geworden.... Innerhalb des Judentums ist die prophetische Bewegung zurückgetreten, aber niemals ganz ausgestorben, wie die sog. falschen Messiasse und Propheten der römischen Zeit beweisen".

"لا نستطيع نَفْيَ ظهور شيء شبيه بالنبوة، عند شعوب هنا وهناك. لكن عند بني إسرائيل وحدهم ظهرت النبوة في صورة بدايات بسيطة جدًّا، ثم تطورت إلى سلطة مسيطرة على كل مجال للدين والدولة... وفي داخل اليهودية خفتت حركة النبوة لكنها لم تمت تمامًا، ووجود مُسَحَاء كذبة، وكذا أنبياء الحقبة الرومانية، دليل على ذلك".

وقوله[2]:

"Etwas ähnliches mögen die altarabischen Kahine gehabt haben von denen wir aber wenig Sicheres wissen. Ich bemerke hier, daß die übrigen semitischen Sprachen ihr Wort für "Prophet" alle erst aus dem hebräischen נָבִיא *abgeleitet haben".*

وترجمته:

"حصل الكُهان العرب القدامى - الذين نعرف عنهم القليل المؤكد - على شيء

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ - ٢.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش١.

مشابه لذلك (النبوة)، وأسجل هنا أن اللغات السامية اشتقت الكلمة الدالة على النبي بداية من الكلمة العبرية נָבִיא ".

وقوله[1]:

"Die Prophetie im höchsten Sinne ist demnach eine göttliche Kunst. Sobald man aber anfängt, dieselbe in Schulen zu lehren oder gar zu vererben, und die Propheten sich zunftmäßig organisieren, wird die Kunst zum Handwerke erniedrigt".

وترجمته:

"النبوة في أسمى معانيها: فن إلهي. لكنها تنحط إلى مهنة، عندما يتعلمها المبتدئ في المدارس، أو يرثها، أو عندما ينتظم الأنبياء في نقابات أو روابط"[2].

كما أن جناية نولدكه لم تكن على وحي الله إلى محمد أو نبوته فقط، بل كانت على سائر صور الوحي والنبوات السابقة بجعلها داخل المجال الذاتي لأي نبي؛ فقد مر قوله[3]:

"إن طبيعة الأنبياء تجعل روح النبي ممتلئة بفكرة دينية يتأثر بها لدرجة تجعله يشعر أنه مدفوع من قوة إلهية، ليبلغ فكرته هذه إلى مواطنيه على أنها حقيقة مأخوذة من الله.

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ هامش٢.

(٢) لكن جاء في سفر عاموس ٧: ١٤ ما يبين أن النبي لا يختار نفسه نبيًّا، بل الله هو الذي يختاره. ولقد قرأ نولدكه هذا النص وأورده في كتابه (ق١ ص١ هامش٢) قال:

"Sehr charakteristisch für das Wesen des echten Propheten ist die Stelle Amos 7,14 f.: „Ich bin kein Prophet (dem Stande nach), noch eines Propheten Sohn, sondern ein Rinderhirt und Maulbeerzüchter, aber Jahve nahm mich von der Herde weg, und sprach zu mir: "wohlan, rede als Prophet zu meinem Volke Israel"".

"في سفر عاموس ٧: ١٤ بعض الصفات الشخصية المميزة للأنبياء الحقيقيين: (لست نبيًّا، ولا ابن نبي، بل أنا راع وجاني جميز، فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب: اذهب تنبأ لشعب إسرائيل)". فلماذا تجاوز نولدكه هذه الرؤية؟

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ – ٢.

إن مسيح الناصرة أراد أن يكون أكثر من نبي، لأنه كان يشعر أنه هو المسيح الذي وعد به أنبياء بني إسرائيل. وباعتباره مؤسسًا لدين القلب والفكر الجديد؛ فقد عرف كيف يبث الثقة في طائفته أنه هو ابن الإله وسيد المؤمنين؛ الذي رغم العذاب والموت؛ قد ذهب في عظمة الأب".

وقوله[1]: "لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

كما مرت رؤيته أن النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: العقل النظري.

إن كلام نولدكه هذا يبين أنه يفهم النبوة في عمومها على أنها: امتلاء روح الأنبياء بفكرة دينية تجعلهم يشعرون أن قوة إلهية تدفعهم لتبليغ أفكارهم على أنها وحي الله. وحتى المسيح كما صوره العهد الجديد كانت نبوته وسائر ما نسب إليه فيه مجرد شعور لديه.

كما تبين نصوصه كذلك أن النبوة عنده مكونة من: خيال خصب وإلهام قريب من الشعور (وبدرجة أقل) عقل نظري. وحتى حين اقترب شيئًا ما من موضوعية الوحي أعادته من جديد ألفاظه إلى دائرة الشعور؛ قال[2]:

"لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها، وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم، على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

إن هذا التصور الذي يقدمه نولدكه للنبوة هو تصور غير مقبول؛ لأنه لم يقدم دليلًا عليه، وإنما ذكره هكذا كمُسَلَّمَة، وما أكثر مسلماته!!

إنه يجعل النبوة مجرد شعور ذاتي داخل نفس أي نبي ليس لها أي بعد موضوعي

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

خارجي، وليس لها ظل من واقع. وهو في الحقيقة معذور لأن الانطباعات السلبية التي تركتها بعض تصورات أهل الكتاب بوجه خاص عن النبوة والأنبياء كفيلة بتكوين صورة شائهة ومنقوصة عن هذين الأمرين.

وقبل قليل نقلنا أقواله عما يسميه: (شبه النبوة) أو (بدايات نبوة) و(أن الكهان العرب حصلوا على ما يشبه النبوة) و(النبوة تنحط إلى مهنة) و(تتعلم في المدارس) و(تورث) و(ينتظم الأنبياء في نقابات)[1].

تحت ظلال هذا الغبش يتم تفسير نولدكه لنبوة محمد ﷺ.

النبوة والوحي في العقيدة الإسلامية:

أيًا ما كانت الخلفية التي تشكلت فيها آراء نولدكه فإنه ما دامت النبوة لديه باقية في إطار الشعور؛ وما دام الخيال والنظر العقلي مكونين لها؛ فلا يمكن لنولدكه أن يستوعب العقيدة الإسلامية في النبوة والوحي وبالتالي سيخطئ حتمًا في تفهم نبوة محمد ﷺ:

فالعقيدة الإسلامية في النبوة تبين أنها تقوم على الاصطفاء المطلق من الله. ولا علاقة لها بالكسب ولا تتأتى بقرابة لنبي أو وساطة إليه أو مجاورة له ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

وحين تحدث القرآن عن إبراهيم ومن صار نبيًا من ذريته دار الحديث بمعاني الهبة والهداية والتفضيل والاجتباء والإيتاء مع نسبة كل الأمر لذات الله العلية فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ

---

(١) والنقطة الإيجابية الوحيدة في كلامه هنا أنه وصف النبوة في أسمى معانيها بأنها (فن إلهي)، وأنه اختار قولًا من سفر عاموس كما مر (يجلي إلى حد ما حقيقة النبوة، وأنها اختيار من الله، ليس للبشر فيها تدخل). لكنه لم يكمل الطريق حتى آخره.

(٢) الحج: ٧٥.

وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وبعد ذكر موسى وهارون وإسماعيل وإدريس في سورة مريم قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2].

وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾[4].

فالآيات الكريمة سالفة الذكر لا تدع مجالًا لمن يظن أن النبوة كانت خيارًا من أحد من هؤلاء الأنبياء لذاته؛ بل التأكيد هنا واضح على إسناد أمر الاختيار لله وحده. ومن أجل عظَم قدرها فلا نثبتها لأحد إلا بدليل.

أما العقيدة الإسلامية في الوحي؛ فمن خلال الثابت من الأحاديث المتعلقة بنزوله على النبي نصل إلى أنه: مفارق لذات النبي: كل نبي، لا علاقة له بشعور أو خيال خصب أو مجدب، ولا علاقة له كذلك بنظر عقلي لدى النبي. يتلقى النبي الوحي بمعزل عن إرادته وقوته العقلية، لا يتعجله أو يستجلبه بتغيير روحي أو مادي يجريه على ذاته، وهو لا دخل له فيه، يقتحم عليه ذاته، لا يقوى على دفعِه إذا جاء، أو جلْبه إذا تأخر. لا يرتبط بوقت ولا حال ولا ظرف. وليس له أن يعدل فيه من تلقاء ذاته، لا يزيد فيه حرفًا ولا ينقص منه.

كما أن القرآن يبين أن الوحي جاء النبي حالة كونه لا يدري عنه شيئًا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) الأنعام: ٨٤ – ٩٠.

(٢) مريم: ٥٨.

(٣) الأعراف: ١٤٤.

(٤) الأنعام: جزء من الآية ٤٨، الكهف: ٥٦.

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ولذا فهو لو شاء لرفع ما أوحاه إليه لكنه يبقيه فضلًا منه عليه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[2].

ويبين أنه تنزيل من الله وأن النبي لا يقوى على التقول على الله ما لم يقله ولو فعل لعاقبه؛ قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[3].

ويبين أن تنزل الوحي ليس اختيارًا لجبريل ولا لمحمد إنما هو بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[4].

ويبين أن النبي لا دخل له في القرآن؛ لا يتجاوزه ولا يبدله من تلقاء نفسه، بل يتبع ما يوحى إليه من ربه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5].

وإذا كان الأمر كذلك بشأن كل الوحي؛ فكذلك بعض محتواه (وهو ذكر من مضى من الرسل السابقين). فإخبار الله لنبيه هو الطريق لمعرفته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[6].

وإذا كان الوحي في أصله هبة ومِنَّةً منه تعالى؛ فإن دلائله كذلك (من آيات ومعجزات

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) الإسراء: ٨٦، ٨٧.

(٣) الحاقة: ٤٣ – ٤٧.

(٤) مريم: ٦٤.

(٥) يونس: ١٥، ١٦.

(٦) غافر: ٧٨.

للأنبياء) هي منه تعالى لا تأتي من قبلهم بل بإذن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1].

وكل ما سبق تقريره في القرآن بشأن وحي الله إلى محمد ﷺ هو نفسه المقرر بشأن كل وحي سبق لنبي من أنبيائه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

بعد الذي قررناه إسلاميًّا هنا بشأن النبوة والوحي بشكل عام؛ فإن جعلهما من قِبل نولدكه في مجال الشعور الذاتي لأي نبي هو أمر مرفوض إسلاميًّا؛ سواء أكان بشأن محمد ﷺ أو بشأن أي نبي من أنبياء الله تعالى. وكذلك الأمر بشأن ادعائه أن النبوة مكونة من (خيال خصب، وإلهام قريب من الشعور، ونظر عقلي).

***

هل يوافق أهل الكتاب على التفسير الذاتي للنبوة؟

إذا كنا قد انتهينا إلى أن هذا هو المقرر إسلاميًّا؛ فإننا نجد أن بعض[4] ما لدى أهل الكتاب في الشأن الذي معنا يسير في الاتجاه نفسه ويتسق معه؛ وإن كان الأمر في الإسلام أوضح وآكد باعتباره الدين الخاتم المهيمن على ما سبقه من الكتب.

فقد أوجد العهد القديم الاعتقاد أن (النبي الرائي[5]) يرى الله؛ إذ ورد في سفر

(١) الرعد: من الآية ٣٨.

(٢) النساء: ١٦٣.

(٣) الشورى: ٥١.

(٤) أقول: (بعض) لأن بعض ما لديهم كذلك يجعل للموحى إليه بعض الدخل في مادة الوحي. لكن لعل هذا التناقض يرجع إلى التحريف الذي ما عاد خافيًا على أحد حصوله للعهدين: القديم والجديد على مدار الزمن.

(٥) من مواضع العهد القديم التي سمي فيها النبي: (الرائي): أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩.

العدد[1] عن بلعام: "فكان عليه روح الله؛ فنطق بمثله، وقال وحي بلعام بن باعور وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي يسمع أقوال الله الذي يرى رؤيا القدير مطروحًا وهو مكشوف العينين".

وطبقًا لسفر صموئيل الأول؛ تجلى الله في الرؤيا لصموئيل وهو صبي؛ فقال له أكثر من مرة: "ها أنا ذا". وكبر صموئيل وكان الرب معه... وعرف جميع إسرائيل... أنه قد اؤتمن صموئيل نبيًّا للرب"[2].

ويُذكر في سفر التكوين[3] أن الرب كلم يعقوب في حُلم حيث رآه واقفًا على سلم منصوبة بين السماء والأرض".

وفي سفر الخروج[4] نجد أن الله كلم موسى "قال الرب لموسى" أو "قال الرب لموسى وهارون. وفي اللاويين "ودعا الرب موسى وكلَّمه من خيمة الاجتماع" وكثر فيه مجيء عبارة: "وكلم الرب موسى قائلًا" أو "وكلم الرب موسى وهارون".

أما لفظ نبي كما جاء في كتاب علم اللاهوت النظامي[5] المعبر عن المسيحية الإنجيلية فهو: "من يتكلم عن آخر أي عن لسانه وسلطانه، ولذلك لا يكون هو المسؤول عن صحة قوله، بل المسؤول هو من يتكلم عنه. قال الله لموسى: انظر أنا جعلتك إلاهًا لفرعون، وهارون يكون نبيك أي المتكلم عنك"[6]. وفي العهد القديم[7] كذلك: قال الرب لموسى عن هارون "فتكلمه وتضع الكلمات في فمه ... وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك

---

(١) ٢٤: ٣ - ٥

(٢) صموئيل الأول ٣: ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٩ - ٢١.

(٣) ٢٨: ١٢ - ١٦.

(٤) الإصحاح التاسع والعاشر والحادي عشر.

(٥) ص١٠٥ - ١٠٦.

(٦) والنص من سفر الخروج ٧: ١، ٢ "فقال الرب لموسى: انظر! أنا جعلتك إلاهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يُكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه".

(٧) الخروج ٤: ١٤ - ١٧.

فمًا، وأنت تكون له إلاهًا". وجاء في رسالة بطرس الثانية: إن "كل نبوة الكِتاب ليست من تفسيرٍ خاصٍ لأنه لم يأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس"[1].

كما أن الوحي أو الإلهام عند المسيحية الإنجيلية: "هو عمل روح الله القدس في العقل البشري الخاص بتأهيل الأنبياء والرسل وكتبة الأسفار المقدسة"[2]، ولا يتأتى باكتساب فهو "فائق الطبيعة... لأنه غير ناشئ عن علم الإنسان، ولا عن استعداده الطبيعي، ولا عن ظروفه الخارجية، بل عن فعل الروح القدس فيه رأسًا؛ لغاية معلومة"[3] وأن "كَتَبَةَ الكتاب هم آلات بيد الله وأقوالهم معصومة من الغلط"[4] و"الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه"[5]، وأن الموحى إليهم لم يكن لهم دور في الوحي، بل "كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله، لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية"[6].

معنا هنا إذن بيانُ العهد القديم سماع النبي صموئيل أقوال الله وتجلِّي الله له؛ واعتباره لذلك نبيًا. وبيانُه أن الله كلم يعقوب وموسى. ومعنا كذلك إقرار بطرس أن نبوة النبي ليست بإرادته. ومعنا أيضًا حديثُ النصارى في بعض مراجعهم عن الوحي باعتباره عمل روح الله القدس في العقل البشري وأنه لا ينشأ عن علم الإنسان. ومعنا أيضًا حديثهم عمن يوحى إليه على أنه آلة بيد الله، وأن الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه.

فعلام يدل كل هذا؟ إنه يدل على أن جعْل نولدكه النبوة والوحي في دائرة الشعور

(١) ٢ بط ١: ٢٠، ٢١.
(٢) علم اللاهوت النظامي ١٠٢.
(٣) السابق ١٠٣.
(٤) علم اللاهوت النظامي ١١٢، ويوحنا ١٠: ٣٥.
(٥) علم اللاهوت النظامي ١١٣.
(٦) السابق ١٠٤.

الذاتي والصوت الداخلي للنبي هو أمر مرفوض من قِبَل أهل الكتاب[1] كما ظهر لنا من قبلُ رفضه إسلاميًّا. وبالتالي فإن نولدكه على خطأ عظيم سواء قصر تفسيره للوحي على هذا النحو على حالة محمد ﷺ أو عممه على غيره من الأنبياء؛ وقد سبق أن فسر به وحي المسيح. فلم يأت محمد بدعًا إذن حين عد كل كلمة في القرآن وحيًا حرفيًّا من الله تعالى.

***

(١) وما عبر عن خلاف ذلك لديهم عائد للتحريف الذي وقع لنصوصهم الدينية؛ ذلك التحريف الذي ما عاد سبيل لإنكاره.

المبحث الثاني
الرد عليه في وصفه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي

إن وصف نولدكه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي ***logischen Abstraktionsvermögens***؛ بغض النظر عما يعنيه مفهوم التجريد من الوجهتين: النفسية والفلسفية[1]؛ فإن الذي يعنينا هو تفسيره لهذا الوصف بقوله الذي مر:

إن النبي " قد عدَّ كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان، بل انقاد للشعور الغريزي الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعدُّ [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

فهل حقًا كان رسول الله يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلًا له من السماء؟

وهل حقًا اعتبر الرسول شعوره الداخلي صوت الله؟

وهل كان يفتقد للتجريد المنطقي؟

---

(١) التجريد ***(Abstraction)***: سيكولوجيًا: عزل صفة أو علاقة عزلًا ذهنيًا وقصر الاعتبار عليها. والذهن من شأنه التجريد، لأنه لا يحيط بالواقع كله، ولا يرى منه إلا أجزاء معينة في وقت واحد، وتسوقه التجربة أيضًا إلى التجريد؛ لأنها تعرض له الواقع مجزءًا أو تظهره على صفة ما. وفي المنطق الصوري: عملية ذهنية يسير فيها الذهن من الجزئيات والأفراد إلى الكليات والأصناف.. وقد يؤخذ التجريد مأخذ الذم؛ فيقال: فلان تجريدي، إذا كان مما يحلو له العيش في عالم الخيال والأوهام. والتجريدية: سوء استعمال التجريد بأخذ المجردات مأخذ الحقائق المحسوسة". المعجم الفلسفي إصدار مجمع اللغة العربية ص٣٩ وانظر: د. عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، وراجع:

Alois Halder \ Max Müller: philosophisches Wöterbuch s. 6,7

سأسلك في الرد هنا مسلكين ينقضان دعوى نولدكه؛ (أن رسول الله كان يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلًا له من السماء؛ ويعد شعوره الداخلي صوت الله).

هذان المسلكان هما:

الاستدلال بذات النبي ﷺ وعلاقتها بالوحي.

الاستدلال بواقع القرآن الكريم من بعض الحيثيات.

المسلك الأول: وهو الاستدلال بذات النبي ﷺ وعلاقتها بالوحي:

وإجمال ما فيه أنه ﷺ لو كان يعد شعوره الداخلي صوت الله لافتقاده التجريد المنطقي – كما ادعى نولدكه – لما ميز بين آرائه واجتهاداته هو وبين الوحي، وكذلك لوجد دعاء النبي طريقه للقرآن، ولأدخل بعض تعقيباته وإضافاته بشأن قصص بعض الأنبياء الواردة في القرآن إليه. ولما جاء القرآن بما لا يُتوقع تذكر ذات محمد له[1]، ولما اختار في البداية أن يحرك به لسانه ليحفظه.

ويشمل هذا المسلك عدة أدلة:

الدليل الأول: تمييز رسول الله بين آرائه والوحي:

١- تمييز النبي بوضوح تام بين رأيه هو باعتباره بشرًا وبين ما يخبر أنه من الوحي قرآنًا أو سنة:

يقول طلحة بن عبيد الله: "مررت مع رسول الله ﷺ في نخل فرأى قومًا يلقحون النخل فقال: «ما يصنع هؤلاء؟». قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى. قال: «ما أظن ذلك يغني شيئًا». فبلغهم فتركوه، فنزلوا عنها فبلغ النبي ﷺ فقال: **«إنما هو الظن؛ إن كان يغني شيئًا فاصنعوه؛ فإنما أنا بشر مثلكم وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله فلن أكذب على الله»**[2].

---

(١) نلاحظ أن كل هذه الأربعة معبرة بشكل أو آخر عن الذات المحمدية وعلاقتها بالوحي.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧٠، قال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أبي يعلى ٢/ ١٢/ ٦٣٩=

فلقد بين هنا أن رأيه هذا قاله بحكم بشريته؛ ولم يعده قادمًا له من السماء؛ ولذا فلم يقل لهم إنه وحي من الله. لكنه أضاف لهم أن ما قلت لكم فيه: إنه وحي من الله فهو بالفعل وحي من الله لأني لن أكذب عليه تعالى.

فالتمييز المحمدي واضح كالشمس بين ما يقوله ناتجًا عن رأيه وظنه، وما يقوله مبلغًا عن الوحي. فمن أين أتى نولدكه إذن بكذبته الكبرى أن النبي لم تكن لديه القدرة على التجريد المنطقي؛ وأنه لذلك كان يعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا؛ وكل ما يتحرك بداخله صوتًا لله؟

ولقد فطن المسلمون لهذا التمييز بنفس قدر وعي النبي له؛ فهذا الإمام النووي يترجم للباب الذي ضَمَّنَه هذا الحديث بقوله [1]:

(باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي)

٢- إعلانه نظريًّا أنه قد يصدر في بعض قضائه لا عن الوحي، بل عن استعراض الأدلة والقرائن والموازنة بين حُجَجِ الخصوم؛ حيث بَيَّن ﷺ أنه لَعَلَّهُ أن يقتنع بحجةِ متقاضٍ يملك لسانًا فصيحًا أو وسائل أخرى توهم أنه صاحب الحق (والحق ليس في جهته)؛ فيحكم له محمدٌ (القاضي البشر)؛ يقول:

«إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار؛ فلا يأخذها»[2].

والحال هنا - مثل ما سبق - أن تمييز النبي واضح تمامًا بين ما يقوله ناتجًا عن اجتهاده ورأيه (وصوته الداخلي حسب تعبير نولدكه)؛ وبين ما يقوله مبلغًا عن الله؛ ومن ثم يبقى نفس التساؤل بلا إجابة:

= وقال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح. وبلفظ مقارب في مسلم بشرح النووي مجلده ج١٥ ص١١٦ رقم (٢٣٦١).

(١) مسلم بشرح النووي مجلده ج١٥ ص١١٦ رقم (٢٣٦١).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٢٨٨ رقم (٢٦٨٠).

من أين أتى نولدكه إذن أن النبي كان يعد شعوره الداخلي صوتَ الله؟

٣- **التطبيق العملي لهذا:**

إنه إذا كان المثال السابق قد قدم لنا نظريًّا دليلًا على الاقتناع النظري الداخلي لدى النبي بالفصل بين (صوته الداخلي) وقول الله؛ فإن المثال الآتي يقدم لنا دليلًا عمليًّا على ذلك:

أخرج الطبري في تفسيره[1] الآيات [من ١٠٥ إلى ١١٣: النساء][2] أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما همَّ به نبي الله ﷺ من عذره، وبيَّن الله شأن طعمة بن أبيرق، ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيمًا. وكان طعمة بن أبيرق رجلًا من الأنصار.. سرق درعًا لعمه كانت وديعة عنده، ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم[3]، يقال له: زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى نبي الله ﷺ يهتف، فلما رأى ذلك قومه [أي قوم السارق: طعمة بن أبيرق] بنو ظفر جاءوا إلى النبي ﷺ ليعذروا صاحبهم، وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بعذره، حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل، فانطلقوا إلى نبي الله ليلًا، فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك! فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله:

(١) وأورد الطبراني مثله في المعجم الكبير ج١٩ ص٩ رقم (١٥)، وسنن الترمذي ج٥ ص٢٤٤ رقم (٣٠٣٦)، وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم ج٤ ص٤٢٦ رقم (٨١٧٤)، وأقره الذهبي في التلخيص، وقال الألباني: حسن. وراجع ابن كثير: التفسير ج١ ص٥٢٤، السيوطي: لباب النقول ١١٠ - ١١١، والواحدي: أسباب النزول ١٤٨.

(٢) سأذكرها بعد قليل.

(٣) المتهم ظلمًا هنا يهودي، واسمه: زيد بن السمين، وكذلك في روايات أربعة أخرى لدى الطبري في نفس الموضع، لكنه عند الترمذي والطبراني والحاكم هو لبيد بن سهل، رجل مسلم صالح من الأنصار. وأيًّا ما كان شخص المظلوم فمراجعة النبي بهذا الشأن دليل أصيل هنا.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[1].

فنلاحظ هنا أن المسروق وُجد عند اليهودي بِحِيلَةٍ من السارق الحقيقي. وشهد الشهود الذين كانوا في الظاهر صادقين قبل أن يكذبهم الوحي؛ لذا هَمَّ رسول الله أن يبرئ السارق الأنصاري المسلم (ظاهرًا) المنافق (حقيقة).

فموازنة النبي - باجتهاده قبل الوحي - بين حجج المتقاضين؛ كادت أن تجعله يبرئ السارق الحقيقي ويتهم اليهودي (بشهادة الشهود ووجود المسروق عنده)؛ لكن نزل الوحي:

يفضح دخائل نفس ذلك السارق المحتال وينهى النبي أن يبرئه.

يعاتب أبناء عائلة ذلك السارق الذين شهدوا له زورًا ودافعوا عنه رغم أنهم غير مسؤولين عن إثمه؛ واضعًا بذلك مبدأ المسؤولية الفردية.

يجَرِّمُ أن يرتكب إنسان خطيئة ويرمي بها آخر؛ مهما كان أمر الانتماء الديني لهذا الآخر.

(١) النساء: من الآية ١٠٥ إلى الآية ١١٣ منها.

يُذَكِّر النبيَّ بأنه لولا فضل الله عليه؛ وتداركه له في هذه الحالة لكاد بنو أبيرق أن يوقعوه في حكم خاطئ. ويمتن عليه بأن الله لا يتركه أبدًا في مثل هذه الحالات، فهو ينزل عليه الكتاب ويعلمه ما لا يستطيع بذاته البشرية أن يعلمه فضلًا منه سبحانه.

ونخلص هنا إلى وجه الاستدلال بهذه القصة هنا: حيث إنها والآيات المعالجة لها بينت عمليًّا وبجلاء تام أن رسول الله يفرق بين جهتين:

الأولى: صوته الداخلي المتمثل في اتجاهه لأن يبرئ السارق الحقيقي ويتهم اليهودي.

الثانية: الوحي المفارق لذات النبي المراجع لأحكامه الذي أدان السارق الحقيقي وبرأ المتهم اليهودي المظلوم(1) وأعاد الأمور إلى نصابها.

(1) للأستاذ سيد قطب - رحمه الله - عدة إشارات جيدة في هذه الجزئية، حيث يرى (الظلال ج٢ ص٧٥١-٧٥٣): أن هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا، وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم ومهما صفت أرواحهم.. لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوحي من الله. كما أشار إلى أن الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات كان يهود المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة؛ نشرًا للأكاذيب، وتأليبًا للمشركين، وتشجيعًا للنفاق، وطعنًا في النبوة. وفي ذلك الوقت تنزل الآيات على رسول الله وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلًا يهوديًّا اتهم ظلمًا بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده".. ويقول: "كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار.. لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح هو أن هذا المتهم يهودي.. وكان هناك سبب آخر أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن؛ بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق. وكان هناك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضًا ثم يتهمون اليهود.. ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله. أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة في حساب الإسلام. كان أمر تربية الجماعة الجديدة.. حتى يقام في الأرض ميزان العدل مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية والمصالح القريبة الظاهرة..".

فهل بعد هذا يمكن أن يُصَدِّق أحد نولدكه في دعواه أن النبي كان يعد شعوره الداخلي صوت الله؛ أو في دعواه أنه لم تكن لديه القدرة على التجريد المنطقي؟

٤- **ملاحظات نولدكه على الاستدلال السابق:**

من الأمانة هنا أن أعرض رأي نولدكه في الربط بين القصة والآيات موضوع ما قدمته من استدلال: حيث يقول[١]:

"إن الآيات [من ١٠٦ – ١١٥ [٢] من سورة النساء، أو ١١٦] تفسَّر إجمالًا بأن مدنيًّا متهمًا بالسرقة كاد محمد أن يبرئه طبقًا لرجاء أبناء قبيلته: بنو ظفر. وتفصيلًا: توجد في تقارير متعددة [٣] محتويات شتى سليمة النية بجانبها أيضًا لمسات مغرضة[٤]

إن معظم المصادر تفتقد إلى الإشارة الزمنية. القليل منها فقط هو الذي يقول: إن السارق مات في مكة عند المشركين. وفي أسد الغابة توجد ملاحظة لم تُفحص: أن السرقة حصلت قبل ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة. إن الحادثة في ذاتها بلا ريب جديرة بالتصديق؛ ويُستدل على تاريخيتها كذلك بالاعتماد على [ورودها في] شعر هجائي لحسان بن ثابت. ولا سند في منطوق [هذا] النص القرآني لربطها [أي الحادثة المذكورة] بتلك الآيات، [بل] يرجع هذا الارتباط إلى دائرة اختراع الشراح الواسعة".

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٠٢ – ٢٠٣

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ إلى ﴿...وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقد ذكرت الآيات كاملة أعلاه.

(٣) يحيل نولدكه إلى ابن هشام والترمذي والطبري في التفسير، والواحدي والزمخشري والبيضاوي وأُسد الغابة والإصابة وديوان حسان بن ثابت طبعة تونس. كما يذكر الاختلاف بشأن اسم السارق: أبو طعمة بن أبيرق، أو طعمة بن أبيرق، أو أبو طعمة: بشير بن أبيرق، أو فقط: سارق الدرعين عند حسان، وفي شرحها: بشير بن أبيرق أبو طعمة الظفري.. إلخ.

(٤) عندما يقال على سبيل المثال: إن المتستر على المجرم أو أن اللص ذاته كان يهوديًّا (نولدكه).

٥ أ- مناقشته في رأيه هذا:

إن نولدكه يُصدِّق - وبغير شك - بالحادثة في ذاتها؛ ويتخذ من ذكرها في الروايات وشعر حسان دليلًا على حصولها. لكنه في ذات الوقت يرى أن المفسرين اخترعوا الربط بينها وبين الآيات المذكورة. ودليله على هذا أنه لا سند في منطوق الآيات القرآنية يؤيد هذا الربط.

لكن إذا كانت الحادثة صادقة وتاريخية - كما قال وكما ثبت من حكمي عليها في هامش سابق - فما الذي يمنع أن تكون الآيات المذكورة مرتبطة بها؟

إن شُبهتَيْ نولدكه على هذا المنع هما: أنه لا سند في الآيات يدل على الربط بينها وبين الحادثة، وأن المفسرين اخترعوا هذا الربط ضمن ما توسعوا فيه من ربط بين الأحداث ونزول الآيات.

أما شبهته الأولى المتعلقة بمنطوق الآيات فنرد عليها من خلال الجدول الآتي:

تفاصيل الحادثة المروية	تعقيب الآيات
احتكامٌ للرسول ﷺ	﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾
خيانة السارق وطلب أقاربه من النبي تبرئته	﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾
جدال أقاربه عنه	﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
سَرَق السارق، ورمى هو وأقاربه بريئًا بها	﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾
محاولة أقارب السارق أن يؤيدهم النبي في هذا	لكن الله يعصم نبيه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

يتضح إذن من خلال تأمل أحداث القصة ومنطوق الآيات أن الآيات تعقيب مباشر على القصة. وإذا لم يكن نولدكه يراها كذلك؛ فعن أي شيء تتحدث الآيات إذن؟

ليس في كلام نولدكه إجابة.

وأما شبهته الثانية، وهي أن المفسرين اخترعوا هذا الربط؛ فكان من الممكن أن تكون صادقة[1] لو كانت الروايات عن الحادثة ضعيفة؛ أو كانت صحيحة لكنها تكتفي بذكر الحادثة دون أن تبين نزول الآيات تعقيبًا عليها؛ لكن الافتراضين لم يتحققا؛ فالروايات ثابتة، كما تبين لنا الارتباط رواية ودراية بين الآيات والحادثة.

٥ب-ولنا ملاحظتان أخريان على كلام نولدكه هنا:

إن المدني الذي سرق لم يكن مجرد مدني كما قال نولدكه، وإنما كان منافقًا كما تجمع كل الروايات التي فيها: "كان بشير رجلًا منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله" و "لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد ابن سمية" إلخ[2].

إن نولدكه يذكر أن في الروايات ما يشير إلى أن المتستر على المجرم أو أن اللص ذاته كان يهوديًّا؛ لكن ليس في الروايات التي رجعت إليها في هوامش هذه الجزئية شيء من هذا مطلقًا. فقول بعض الروايات: إن يهوديًّا اتهم ظلمًا بتلك السرقة لا يعني أبدًا أنها تقول: إن اللص يهودي؛ لكن نولدكه فهم ذلك، ورتب عليه حكمه أن تقارير بعض الروايات مغرضة. وهو اتهام متعجل قائم على فهم خاطئ كما رأينا.

(١) حصل بالفعل أن بعض المفسرين حاولوا إيجاد سبب نزول بعض الآيات معتمدين على روايات ضعيفة، أو رابطين بين روايات صحيحة وآية أو آيات لا يرتبطان أصلًا. لكن هذا لم يحصل دائمًا منهم، بالإضافة إلى أنه ليس مسلكًا عامًّا من الجميع. (المؤلف)

(٢) راجع ما سبق ذكره من مراجع منها: الترمذي، المستدرك، المعجم الكبير للطبراني.

الدليل الثاني: دعاء النبي لا يجد طريقه للقرآن:

لقد كان رسول الله يدعو ربه في كلمات عذبة رقيقة صافية تنطق بتمام العبودية لله تعالى. ولقد سجل رواة السنة ومدونوها كثيرًا من أدعيته ﷺ في كتب. وكانت أدعيته كثيرة في أحوال وأوقات مختلفة منها: الصباح والمساء.. السفر والجهاد.. دخول المسجد والمنزل والخروج منهما.. نزول المطر.. رؤية أهل البلاء.. رؤية الهلال.. الكرب.. بعد الصلاة.. الاستخارة.. ركوب الدابة... إلخ.

نذكر من أدعيته ﷺ ما أخبرنا أنه سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي؛ فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١).

وكذلك دعاءه عند النوم: «**اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**»(٢).

وعند تهجده كان يقول: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك**»(٣).

وعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «**رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك**

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص٩٨ رقم (٦٣٠٦).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١٠٩ رقم (٦٣١١).

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١١٦ رقم (٦٣١٧).

أواهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري»[1]

وكان يقول عند الاستخارة: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجل أمري - وآجله، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري - وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به»**[2].

إن هذه الجزئية بالغة الأهمية في بحثنا؛ إذ إنه مما لا يمكن أن يكون مجالًا للشك أن الدعاء من أهم ما يعبر عن مشاعر الشخص الدينية التي يجيش بها صدره تجاه الله سبحانه؛ ولا يمكن أن يلجأ إنسان للدعاء مختارًا إلا إذا كان صادرًا من الوجدان ومعبرًا عن داخل الإنسان تعبيرًا صادقًا.

ولذا فلا بد أن تكون أدعية رسول الله كلها معبرة أصدق تعبير عن مشاعر النبي ووجدانه، وبخاصة أن رسول الله كان دائم التكرار لها لدرجة أن كثيرًا منها سمي عمل اليوم والليلة؛ ومن هنا يمكن أن نطلق على دعاء النبي ربه هنا: صوت النبي الداخلي؛ فلماذا لم يدخله النبي إلى القرآن؟

إن كل هذه الكلمات الرقيقة التي تشتمل على تنزيه الله تعالى وتقديسه، وتبين أن النبي يضع نفسه في مقام العبودية الخالصة لله؛ لا يعبد سواه، ولا يرتكن إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه وحده. كما تبين أنه يلجأ لعلمه وتقديره وحده. وفيها إعلانه البراءة من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.. لكن رغم ذلك لم تجد هذه الكلمات طريقها إلى القرآن بفعل رسول الله.

كما نذكر هنا دعاءه عند إيذاء أهل الطائف له إبان الفترة المكية: **«اللهم أشكو إليك**

(١) الترمذي كتاب الدعوات عن رسول الله؛ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١٨٣ رقم (٦٣٨٢).

ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

ونقول بشأن هذا الدعاء الأخير: إن النبي يمكن أن يجد وأن يعاني، وأن يتوجه إلى الله طالبًا النصرة والتأييد.. يمكنه أن يدعو ربه ويناجيه ويرفع إليه واقعه والضر الذي يصيبه.. يمكن أن يستعيذ من غضبه تعالى ويستمطر رضاه.. كل ذلك في لغة رقيقة خاشعة وعبارات مشرقة بالإيمان والتسليم ناطقة بتمام العبودية.. كل ذلك ممكن.. لكن لن تجد مثل هذا الدعاء الصادر من النبي في القرآن؛ وذلك لأن القرآن ليس صدًى لمشاعر النبي ووجدانه وآلامه، إنما هو مفارق لذاته موجه لها.

وفيما قلناه هنا رد إضافي على دعوى نولدكه أن النبي "اعتبر كل ما يتحرك بداخله صوت الله" أو ما سماه: (عدم قدرة النبي على التجريد المنطقي)، فقد وجدنا أن الدعاء وهو شديد التعبير عن الذات لم يقحمه النبي في القرآن، ولم يعتبره صوت الله.

الدليل الثالث: تعقيباته ﷺ على بعض القصص القرآني لم يقحمها في القرآن:

لقد ثبت عن النبي ﷺ بعض التعقيبات والإضافات بشأن قصص بعض الأنبياء الواردة في القرآن. منها أنه قال بشأن قول القرآن على لسان لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2]: **«يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد»**[3].

---

(١) الطبري ج٢ ص٣٤٥، وكذلك أخرجه ابن إسحاق بدون إسناد: السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٥، وقال الشيخ الألباني (هامش فقه السيرة للغزالي ص١٣٧): (قال الهيثمي: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات).

(٢) هود: ٨٠.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤١٥ رقم (٣٣٧٥).

كما ثبت عنه ﷺ إضافات بشأن بعض القصص القرآني من قبيل:

قوله ﷺ بشأن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾[1]؛ **«إن موسى كان رجلًا حييًّا سِتِّيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما برص وإما أُدْرَة[2] وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى؛ فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل؛ فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها؛ وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون»**[3].

وقوله: **«أنا أشبه ولد إبراهيم به»**[4].

وقوله بشأن مريم وابنها: **«ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها»**[5].

ولا شك أن هذه الإضافات صدرت من النبي، لكنها لم تجد طريقها لتصير قرآنًا؛ (على الرغم من أنها مما خطر على ذهن النبي، أو بتعبير نولدكه: صوت النبي الداخلي). وهذا دليل على بطلان دعوى نولدكه (عدم قدرة النبي على التجريد المنطقي)، أو أن النبي كان يعد صوته الداخلي صوتًا لله.

الدليل الرابع: مجيء القرآن بما لا يتوقع تذكر ذات محمد ﷺ له.

وأتناول هنا – على سبيل المثال أمر القرآن أولي الفضل[6] بالعفو والصفح وعدم

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) الأُدْرَةُ بالضَّمّ: نَفْخَة في الخُصْية. يقال: رجل آدَرُ: بَيِّنُ الأَدَر (بفتح الهمزة والدال)، وهي التي تُسَمّيها الناسُ القيلةَ. النهاية في غريب الأثر ج١ ص٣١.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤٣٦ رقم (٣٤٠٤).

(٤) من حديث بشأن الإسراء، البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص ٤٢٨ رقم (٣٣٩٤).

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤٦٩ رقم (٣٤٣١).

(٦) وضَّح حديث عائشة أن المقصود هو أبو بكر الذي كان ينفق على مسطح ثم قطع عنه النفقة لـمَّا قال ما قال.

قطع النفقة عن أولي القربى واليتامى والمساكين. والمقصود مسطح بن أثاثة الذي أساء لعائشة، وروج لاتهامها كذبًا.. تقول عائشة:

(فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه؛ وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا)[2]. حيث يُظهر تأمُّلنا له أن النبي لم يكن كما يدعي نولدكه مفتقدًا إلى التجريد المنطقي؛ كما يمدنا ببعد إضافي يبتعد بالوحي عن دائرة ذات محمد؛ وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: جهة التذكر على خلاف المتوقع؛ فهذا النبي البشر الذي هوجم في أسرته هذا الهجوم الخسيس ثم كشف الوحي الحقيقة.. كيف يمكن - لو كان هو مصدر الوحي - أن يتذكر حادثًا هامشيًا عارضًا هو (منع أبي بكر الصدقة عن شخص تكلم باتهام عائشة)؟

إن نسيان حدث عارض كهذا؛ هو المتوقع غالبًا في غمرة السرور ببراءة زوجة النبي الحبيبة وإزاحة هذه الغمة عن واقع المجتمع المسلم.

لكن مجيء الإشارة إليه يفيد بالضرورة أن ذِكره مفارق لذات محمد ليس نابعًا منها. ويفيد كذلك أن هناك فصلًا وتمييزًا واضحين تمامًا بين عالم مشاعر محمد - البشر - الداخلية؛ وبين مقتضيات الوحي العلوي المتجرد عن هذه المشاعر، المفارق لها، والذي يسمو بها في نفس الوقت.

الجهة الثانية: جهة الأمر بما هو مخالف لاتجاه الذات أو بما هو فوق ما يتوقع منها؛ حيث إن عدم اتخاذ موقف مناهض لمنع النفقة عن مثل مسطح (الذي وجه إهانة شخصية لزوج

---

(١) النور: ٢٢.

(٢) من حديث في البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٥٢ رقم (٤٧٥٠). وستأتي بقيته.

النبي)؛ هو الأمر الذي يُتوقع (صدى لصوت الذات النبوية المعتدى عليها)؛ وذلك بقصد تأديب مسطح كواحد من مروجي الإفك، وبخاصة أن حدَّ الله بشأن قذف المحصنة ينتظره.

ولو افترضنا أن تسامي هذه الذات الخلقي كان سيميل إلى الصفح وسيأمر أبا بكر بالرجوع للإنفاق عليه؛ لتوقعنا أن يكون ذلك بأمر نبوي في كلام عادي.. لكن أن يجيء هذا مخالفًا لاتجاه الذات المعتدى عليها وفي نص قرآني بوحي إلهي؛ فذلك لا يمكن تفسيره أبدًا إلا بافتراض الانفصال التام بين مشاعر محمد (صوته الداخلي حسب نولدكه)؛ وبين مصدر الوحي، بما يعني أن النص القرآني مفارق لذات النبي غير نابع منها، ولا متأثر بها، وليس صدًى لصوت داخلي لها.

ومن الأمثلة على هذه الجهة: (جهة الأمر بما هو مخالف لاتجاه الذات النبوية) كذلك:

١- ما ثبت عند مسلم وأحمد من حديث أنس بن مالك أن النبي كسرت رباعيته يوم أحد، وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه، فقال: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

٢- ما روي بشأن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2] من أنه لمَّا كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمثل المشركون بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنربين عليهم؛ فلما كان يوم فتح مكة فقال رجل: لا قريشَ بعد اليوم، وأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآيات، فقال رسول الله: «**كُفُّوا عن القوم إلا أربعة**»[3].

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) النحل: ١٢٦-١٢٨.

(٣) المستدرك ج٢ ص٣٩١ رقم (٣٣٦٨)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه،=

إن الآيات ترتفع فوق جراحات النبي والمسلمين التي حصلت في أحد، ولا يمكن أن تصور كونها صدى لما يعتمل في ذات النبي ومشاعره التي جاءت الآيات بخلافها. فلا يقبل ادعاء أن يكون النبي يوحد بين صوته الداخلي ووحي الله.

لكن ما موقف نولدكه من هذا المثال الأخير؟ إنه يرى مكية الآيات المذكورة[1]:

"إنها حسب محتواها وشكلها تعد مكية؛ وتفسرها الرواية - لكن بشكل عابر - بمنع محمد أن يفي بنذره وينتقم من المكيين لقتلهم حمزة[2]، ويضيف البعض: إن هذه الآيات لم تنشأ فور الانتهاء من غزوة أحد، بل فيما بعد عند فتح مكة.. إن وجهات النظر الخاطئة هذه يمكن أن تعتمد على حقيقة أن ذلك الوحي القديم كان قد تلي من النبي عند واحد من هذه الأحوال. إن الأكثر احتمالًا أن تكون وجهات النظر هذه ظنونًا من الشراح".

ويستدل نولدكه على رأيه بقوله[3]: "قارن: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بـ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، و(بما يمكرون)[4]. إن الإشارات الواضحة هنا أن النبي الذي وجد نفسه في حالة استضعاف لم يكن في استطاعته أبدًا الاعتراض، فضلًا عن الجهاد العلني".

= وقال الذهبي: صحيح، وابن حبان بترتيب ابن بلبان ج٢ ص٢٣٩ رقم (٤٨٧)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. كما ورد في مسند أحمد ج٥ ص١٣٥ رقم (٢١٢٦٨)، والبيهقي وغيرهم.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٨ - ١٤٩.

(٢) هو يشير إلى رواية ضعيفة السند، وردت في المستدرك ٣/ ٢١٨ رقم (٤٨٩٤)، تربط نزول الآيات بغزوة أحد؛ حيث تشير إلى أن النبي عندما نظر يوم أحد إلى حمزة (وقد قتل ومُثِّل به) فرأى منظرًا لم ير منظرًا قط أوجع لقلبه منه ولا أوجل [فقال ما قال] ثم حلف، (وهو واقف مكانه): «والله لأمثلن بسبعين منهم». فنزلت الآيات المذكورة. فكفَّر رسول الله ﷺ عن يمينه، وأمسك عما أراد. لكن الذهبي قال في التلخيص: صالح (يقصد المُرِّي، وهو أحد الرواة هنا) واهٍ؛ وقال عنه البخاري: منكر الحديث. كما وردت نفس الرواية من طريق محمد بن إسحاق وبإسناد فيه مبهم. راجع: تعليق مصطفى عبد القادر عطا على الرواية في موضعها المذكور في المستدرك، وابن كثير: في تفسيره للآيات المذكورة.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٨-١٤٩، في الهامش.

(٤) هكذا كتبها نولدكه باللغة العربية والصواب: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

وأقول:

لقد ذكرت من قبل الرواية الصحيحة بشأن نزول الآيات الكريمة سالفة الذكر. ومن ثم فلا يصح منهجيًّا الإعراض عن هذه الرواية الصحيحة، وجعل الآيات مكية بالتعليل الذي قاله نولدكه من أن لهجة الصبر هي المناسبة لحمل الآيات على العهد المكي (عهد الاستضعاف)؛ لأنه لا يصح أن يُعتمد هذا المقياس وحده - بعيدًا عن الرواية - مرجحًا في الحكم بمكية الآيات المذكورة؛ لأنه ليس أمرًا لازمًا للمرحلة المكية.

فالأمر بالصبر والصفح من ناحية قد وجد على الأقل في آيتين مدنيتين؛ هما: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]، ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2].

ويقينًا لم يكن النبي في المرحلة المدنية في حالة استضعاف.

ومن ناحية أخرى قد وجد في العهد المكي (الذي هو عهد الاستضعاف) جواز رد الظلم بما يكافئه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[3].

إن دليل نولدكه على مكية الآيات المذكورة إذن قد تطرق إليه الاحتمال فيسقط به الاستدلال. وما دامت الرواية قد ثبتت على النحو الذي بيناه؛ فلا سبيل إلى قبول ادعاء نولدكه أنها ليست سوى ظنون من الشراح لأن دعواه قد آلت إلى أن تكون بلا دليل.

وحتى إن كانت الآيات مكية؛ فهي تحمل أيضًا ذات الدلالة من حيث إنها ترتفع فوق رغبة الذات في أن يكون لها رد فعل تجاه ما تلاقيه من عنت وظلم واضطهاد (وقد كانت صوره بمكة أكثر من أن تحصى). فهذا يدل على كونها ليست صوت محمد الداخلي.

---

(١) البقرة: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٢٠.

(٣) الشورى: ٤٠، ٤١.

الدليل الخامس: تدريب النبي ذاكرته على الحفظ:

لقد كان النبي في بداية نزول الوحي عليه يدرب ذاكرته على الاستيعاب والحفظ لما ينزل عليه إلى أن نُهي عن ذلك[1]. ولن يكون هذا التدريب ذا معنى إلا إذا كان النبي بالفعل يفصل من حيث المصدر بين (ما يتلقاه من وحي يردده حتى لا ينساه) وبين ذاته هو.

المسلك الثاني: الاستدلال بواقع القرآن الكريم على وجود التجريد المنطقي لديه ﷺ:

نسوق هنا دليلين بالنظر إلى واقع القرآن يردان على نولدكه دعواه أن رسول الله كان (يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء)؛ و(يعد شعوره الداخلي صوت الله)؛ حيث سيظهر لنا من هذين الدليلين أن النبي كان قادرًا على التجريد المنطقي، وأنه كان يفرق بين مشاعره والوحي، وأنه ما كان يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء.

الدليل الأول: أننا لا نجد في القرآن أثرًا لشخصيته[2] ﷺ:

أ- فلقد مرت بالنبي أحداث مؤلمة على المستوى الشخصي لم تكن متعلقة تعلقًا مباشرًا بدعوته، بل تندرج تحت ما يمكن تسميته: عوارض الحياة ونوازل الدهر التي تعرض لكل البشر، وذلك مثل وفاة أبيه، وأمه، وجده عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وزوجه خديجة، وستة من أبنائه. كل هذا لا نجد له أي أثر في القرآن. فهل وجد شاعر لا تبعث هذه الأحداث العاطفية الكبرى في حياته بصداها إلى شعره؟

ب- كما لا نجد فيه كذلك أسماء من أحبهم النبي، والأحداث المهمة في حياته من ميلاد وتفاصيل يُتمٍ ورَعي للغنم وتجارة وزواج وعالم مشاعره الخاصة.. يقول

(١) ستأتي الروايات المتعلقة بهذا.

(٢) وعلى صلة بهذا نجد أنه بالنظر لطبيعة ذات النبي ﷺ فلا يمكن كذلك أن يكون النبي عد شعوره الداخلي صوت الله.

الأستاذ مالك بن نبي: (ستظل ذاته دائمًا صامتة في الخطاب القرآني الذي لن يذكر الأحداث الخاصة في تاريخه. فلن نجد أي صدى لآلامه خاصة عندما يفقد أكرم زوجة وأفضل عم، ومع علمنا بما كان لديه من الحنو البَنوي تجاه هاتين الشخصيتين)[1]

ويقول[2]: إن ذات النبي تشغل في القرآن (مكانًا ضئيلًا؛ إذ نادرًا ما يتحدث القرآن عن تاريخ محمد الإنسان. إن آلامه العظمى أو مسراته لم ترد فيه قط. ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجه لأدركنا مدى الدوي الرهيب لحدث كهذا في حياة (رجل) كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب عندما كان اسماهما يذكران أمامه[3]؛ وعلى الرغم من هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن، بل ولا اسم الزوجة الحانية التي تقبلت في حجرها انبثاق الإسلام الوليد).

ج- وعلى علاقة بهذا أننا نجد أن اسم (محمد ﷺ) ذاته لم يذكر في سائر القرآن سوى مرات أربعة[4]؛ في حين أن موسى عليه السلام ذكر خمسًا وثلاثين ومائة مرة تقريبًا، وذُكر عيسى باسمه وبنسبته لأمه ثمانية وأربعين مرة تقريبًا؛ فلو كان الوحي صوت النبي الداخلي؛ فهل كان من الممكن أن يقل تذكرُه لنفسه لهذا الحد؟

د- وحتى عندما اختفت قطيفة من الغنيمة وجرى على لسان بعضهم أن ربما أن يكون أحد أخذها للنبي، وجاء النفي القرآني منزها مقام النبوة في ذاته – بشكل

---

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٦٣، ١٦٤.

(٢) مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ١٩٦. وراجع د. محمد شامة: الإسلام في الفكر الأوربي٦١، ٦٢.

(٣) الثابت أن النبي كان يتأثر كثيرًا لذكر خديجة.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩].

عام – عن الغلول؛ دون أن تظهر أي ظلال عن شخصية محمد التي نؤكد أنها تتوارى في القرآن؛ جاء عن ابن عباس في مناسبة نزول الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] أن قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها. فأنزلها الله[2].

هـ- تعليق نولدكه على الارتباط بين الآية والحادثة المذكورين في الفقرة الأخيرة:

إنه يعلق على الارتباط المفترض بين الآية والحادثة المذكورة فيضيف نزغ التشكيك المعهود منه، فيقول[3] عن الآية المذكورة:

إنها "ترتبط برواية تقدم معلومة أن حلة ثمينة كانت قد فقدت من غنائم بدر، واتهم محمد بأنها أخذت له. هذا الربط *(Kombination)* يترك انطباعًا من أول وهلة بأمانة تاريخية [في النقل] *(historischer Zuverlässigkeit)*؛ بسبب ما فيه من اتهام للنبي[4]. لكن برغم ذلك يبدو أنه مثير للاشتباه أن يكون تزيدًا أدخل من أجل الشرح والتفسير".

فهو هنا على الرغم من تحسين الترمذي لهذا الحديث – كما بينا في الهامش – وعلى الرغم من إشارة نولدكه السريعة إلى ما يتركه هذه الحديث من انطباع بوجود أمانة تاريخية في النقل؛ إلا أنه بلا أدنى مبرر يصير إلى التشكيك فيه مرجحًا كونه مجرد تزيد من الشراح من أجل التفسير لا أكثر. وما دليل نولدكه للتشكيك فيه؟ لا دليل لديه سوى قوله: يبدو أنه مثير للاشتباه أن *scheint sie verdächtig*..

(١) آل عمران: ١٦١.

(٢) أبو داود والترمذي وحسَّنه. وراجع: لباب النقول في أسباب النزول ص٧٦.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩٣ وهامش٤.

(٤) يجب أن نتذكر هنا اتهام نولدكه للمسلمين أنهم أخفوا أن رسول الله كان خوافًا (راجع بدايات هذا الجزء). وينبغي أن نضيف رواية المسلمين المذكورة أعلاه إلى جملة ما رددنا به هناك عليه؛ إذ لو كان مبدأ الإخفاء واردًا؛ لأخفوا هذه الرواية أيضًا التي يترك إيرادهم لها – وباعتراف نولدكه نفسه – انطباعًا بالأمانة التاريخية *historischer Zuverlässigkeit*.

وما أيسرها من طريقة يمكن أن تستخدم من قبل أي باحث للتشكيك في كل رواية مرتبطة بنزول آية؛ ولا قيمة إذن لمنهج المسلمين للتثبت من المرويات!!

وإذا لم تكن هذه الآية على علاقة باتهام معين من قبيل ما جاء بهذه الرواية فبم تتعلق إذن؟ لا يجيب نولدكه!

الدليل الثاني: أننا لا نجد القرآن انعكاسًا لرغباته ﷺ

وأسوق هنا حالة انتظارِ النبي تحويلَ القبلة ستة عشر شهرًا مثلًا على هذا؛ فحين ننظر إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1] نفهم أن النبي كانت لديه رغبة حقيقية في أن يتجه للكعبة في صلاته لاعتبارات كثيرة، وتفهم هذه الرغبة المحمدية من السنة كذلك[2].

لكن تحقيق هذه الرغبة بأمر الوحي لم يواكب الرغبة ذاتها زمانًا وجاء متأخرًا عنها؛ فلو كان النبي لا يملك القدرة على التجريد المنطقي ليفصل بين (صوته الداخلي) و(كلمة الله) لحول هذه الرغبة من أول الأمر إلى قرآن، ولكان أقل ما يمكن توقعه من الوحي أن يكون انعكاسًا لرغبته في التوجه للكعبة في الصلاة مواكبًا في الزمان لهذه الرغبة.. لكن هذا لم يحصل؛ وتأخر تحويل القبلة كل هذه المدة[3].

نخلص في هذا المبحث إلى بطلان دعوى نولدكه افتقاد النبي ﷺ للتجريد المنطقي، أو أنه كان يعد صوته الداخلي وحي الله. حيث ظهر لنا خطؤه في فهمه للنبوة والوحي. كما ظهر لنا أن دعاء النبي وتعقيباته ﷺ على بعض القصص القرآني لم يجدا طريقهما

---

(١) البقرة: من الآية ١٤٤.

(٢) جاء في الحديث عن البراء بن عازب: (وكان رسول الله يحب أن يوجَّه إلى الكعبة). البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص٥٠٢. وجاء في طبقات ابن سعد ج١ ق٢ ص٣: أن النبي قال: «**يا جبريل، وددت لو أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود!**». فقال جبريل: إنما أنا عبد، فادع ربك وسله. وجعل (النبي) إذا صلى إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء؛ فنزلت عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الآية.

(٣) ويأتي تحت هذا العنوان كذلك كل ما كان رغبة للنبي وأظهرها، لكن الوحي جاء بخلافها.



الفصل الثالث

تهافت القول بالصوت الداخلي تفسيرًا للوحي

تمهيد

لقد ناقشنا نولدكه في الفصلين الماضيين فيما ادعاه من أسبابٍ تفسيره الوحي المحمدي على أنه (صوت داخلي ظنه النبي قادمًا له من الله تعالى). وناقشناه في بيانه لنشأة ذلك الصوت المزعوم، وفي ادعائه افتقاد النبي ﷺ التجريد المنطقي؛ مما جعله - حسب زعم نولدكه - يعد شعوره الداخلي صوتًا لله.

ونحسب أننا بذلك نكون قد نقضنا الأسس التي قامت عليها دعواه أن وحي الله إلى محمد لم يكن سوى صوت داخلي للنبي.

وقبل أن أذكر الشواهد التي تبين تهافت تفسير نولدكه هذا؛ فإنه لا ينبغي أن يفوتنا أن نضع هذا التفسير إلى جانب التفسير الذي سبقه في الجزء الأول من هذه الدراسة.

لقد فسر نولدكه الوحي إلى محمد ﷺ - كما رأينا في الجزء الأول - على أنه نوبات صرع أو حالات تهيج نفسي كان يمر بها النبي.. لكنه الآن يفسره على أنه صوت داخلي لدى النبي ظنه وحيًا. ولا أدري بأي منطق ساغ لنولدكه أن يجمع بين التفسيرين!!

إن كون وحي محمد ﷺ عرضًا لمرض نفسي يضفي على ظاهرة الوحي من البداية طابعًا مرضيًّا اضطراريًّا لا دخل فيه للذات النبوية. فالوحي طبقًا لهذا التفسير نوبات صرعية يدخل فيها النبي وبعد إفاقته يقول كلامًا يعده وحيًا جاءه أثناء تلك الحالة.

أما تفسير الوحي على أنه صوت داخل ذات محمد جاءه بحكم الخلوة الطويلة في غار حراء، وفرض عليه أن ينذر قومه ويحذرهم من الشرك... هذا التفسير ليس فيه مكان لأي ظاهرة مرضية نفسية أو حتى عضوية؛ فالنبي حسب افتراض نولدكه واع برسالته

مؤمن بها واع كذلك بدوره ووظيفته.. وهذه الأمور كلها تتناقض تماما مع أي افتراض لحالة مرضية.

والسؤال الآن: كيف عبر نولدكه بهذين التفسيرين قنطرة المنطق فجمع بينهما رغم ما بينهما من اختلاف؟

وإذا أضفنا إلى هذا أيضًا أن كتاب نولدكه كان في الأصل رسالته للدكتوراه؛ فإن سؤالًا ثانيًا سينشأ، هو: بأي منطق علمي مر ذلك على الأساتذة الذين حكَموا على رسالته؟

ثم بمعالجة فريدريش شفاللي (وهو من هو في عالم الاستشراق) للقسم الأول من كتاب تاريخ القرآن الذي أورد فيه نولدكه هذا الكلام الغريب... يكرر السؤال للمرة الثالثة؟

لكن يظهر لي: ألا جواب.... لسبب يسير هو أن الأمر إذا تعلق بمحمد ﷺ ونبوته وأصل الإسلام فإنه يسهل الإطاحة بالمنطق!!!

هكذا أراد نولدكه.. وهكذا أراد متابعوه... ولن يسعنا إذن سوى أن نتعامل مع الواقع... ولننظر الآن في هذا التفسير لنرى: هل يمكن قبوله بالفعل مفسرًا لوحي الله إلى محمد ﷺ؟

ونقول:

إننا بالإضافة لما ذكرناه من ردود جزئية تفصيلية على نولدكه في المباحث الثلاثة الماضية؛ فإننا بشكل عام لو نظرنا إلى واقع العلاقة بين النبي والقرآن، وإلى حالة الوحي ذاتها؛ سنصل إلى نتيجة هي أنهما يتناقضان بشكل صارخ مع افتراض نولدكه أن وحي محمد هو صوته الداخلي.. ولذا لا نترك الثابت منهما روايةً ودرايةً إلى مجرد افتراض بُني على أرض غير ثابتة.

وأشير هنا إلى أننا وجدنا نولدكه يطرح بعض الأمور واصفًا إياها بأنها ترتبت على عد النبي صوته الداخلي وحيًا؛ وسأناقش هذا هنا أيضًا.

من هنا سيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

الأول: تناقض دعواه مع واقع العلاقة بين النبي والقرآن.

الثاني: تناقض دعواه مع حالة الوحي ذاتها.

الثالث: تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المزعوم.

***

المبحث الأول
تناقض دعواه مع واقع العلاقة بين النبي والوحي

نحن نستطيع أن نرصد واقع العلاقة بين النبي والوحي وذلك من خلال القرآن ذاته وروايات الحديث الصحيحة، في الوجوه الآتية:

أن النبي ﷺ ميز بين وحي الحديث ووحي القرآن، وأن الوحي فيه مراجعة لبعض مواقفه واجتهاداته ﷺ، وأن رسول الله انتظر الوحي عند استفتائه في بعض المسائل، وأن في الوحي القرآني توجيهًا للخطاب إلى النبي، وسلبًا لقدرته على أن يُعَدِّل فيه. وأن القرآن نزل بتشريع جديد (هو حكم اللعان)؛ بعد أن كان رسول الله قد أوشك على تطبيق التشريع الذي كان ساريًا قبل نزول القرآن بالتشريع الجديد. وأن في القرآن ما يصدم الواقع الجاهلي.

وهي كلها وُجُوهُ تَنَاقُضٍ مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًّا للنبي.

ولنعرض الآن لهذه الوجوه:

الوجه الأول: تمييز النبي بين وحي الحديث ووحي القرآن:

إذا كنا قد أثبتنا في المبحث الثاني من هذا الفصل قدرة النبي على التمييز الواضح بين (آرائه واجتهاداته)[1]؛ وبين (القرآن)؛ فإننا نثبت هنا أنه ﷺ كان يفرق تفريقًا آخر أكثر دلالة في نقطة بحثنا هذه، هو تفريقه بين(الحديث القدسي والنبوي) من جانب وبين (القرآن) من جانب آخر. ولو كان الوحي مجرد صوت داخلي له ﷺ لما حصل هذا التفريق.

---

(١) أو ما يمكن أن نستعير له تسمية نولدكه: (صوت النبي الداخلي).

إن النبي وعَى الفارق بين الجانبين تمامًا، وكان لهذا الوعي مصدر خارجي هو الوحي، ولم يكن مصدره ملاحظات نقدية موضوعية متعلقة بالنص الموحى به. كما أن وعيه هذا تجلى في مظاهر تدل عليه. ولنبين ذلك بالتفصيل:

أ- مصدر وعي النبي بالفارق بين نوعي الوحي:

لقد كان الوحي يخبر رسول الله ﷺ؛ ليس فقط بقرآنية النص القرآني؛ بل بالموضع الذي يوضع فيه من التدوين القرآني أيضًا؛ فقد ثبت عن عثمان بن عفان أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه شيء كان يدعو بعض من كان يكتب عنده فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، أوضَعُوها في موضع كذا وكذا»[1] وذلك دون نظر من النبي أو اجتهاد.

فإذا كان النص القرآني ينزل ومعه موضعه من القرآن؛ فهذا يتضمن بالضرورة أنه ينزل ومعه تحديد قرآنيته.

ويتحدث أ. مالك بن نبي[2] عن (المكاشفة) باعتبار أنها كانت أداة النبي في ذلك التفريق، حيث كان "النبي يميز بها بين نوعين من الإيحاء، هما: الآية القرآنية، التي يأمر بتسجيلها فورًا؛ والحديث الذي يستودعه ذاكرة صحابته فحسب".

وأقول: إن كون الله هو مصدر وعي النبي بالفارق بين نوعي الوحي، هو المتوقع؛ لأن الله الذي قدَّر أن يهيئ نفس نبيه ﷺ ليبلغ كلمة الله؛ قدَّر له في ذات الوقت أن يمكنه من التمييز بين وحي القرآن ووحي غيره؛ وهذا هو ما اعترف به نولدكه نفسه في نصٍّ بالغ الأهمية حين أكد على أن:

"من الراجح أنه منذ اللحظات الأولى التي تلقى فيها محمد اليقين بحصوله على بلاغات من كتاب سماوي؛ فقد تلقى - بكل تأكيد بالإضافة لذلك وباليقين نفسه -

---

(١) المستدرك ج٢ص٢٤١ رقم (٢٨٧٥)، وج٢ ص٣٦٠ رقم (٣٢٧٢)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. وقال الترمذي (السنن ج٥ ص٢٧٢ رقم ٣٠٨٦): حسن صحيح.

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٤٥.

أن عليه أن يخدم وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة بعكس الكتاب المقدس لليهود والنصارى. لذلك كان من الواجب عليه أن يكون لديه اهتمام بأن يحفظ نصوص وحي تلك الوثيقة الإلهية من الضياع أو التحريف بواسطة التدوين الكتابي. وفي الحقيقة إن الروايات تحدد؛ ليس فقط الكُتَّاب الذين أملى عليهم محمد القرآن؛ بل أيضًا شكل أدوات التدوين. في مقابل هذا فإن التعرف على كل بلاغات *Kundgebungen* الله الأخرى غير المدونة رسميًّا وقع بالصدف، وقد آل إلى النقل الشفهي"[1].

إنه يقر هنا بتزامن بدايات الوحي إلى النبي محمد ﷺ مع تكوين الوحي نفسه ووعي النبي بالفارق بين نص الوحي القرآني (أو بتعبير نولدكه: وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة)، ونص وحي الحديث (أو بتعبير نولدكه: بلاغات الله الأخرى غير المدونة رسميًّا).

هذا الوعي الذي ترجم عمليًّا إلى الأمر النبوي بتدوين الأول وعدم تدوين الثاني[2].

ب- **مظاهر التمييز النبوي بينهما:**

إنه على الرغم من أن كلًّا من الحديث النبوي والقدسي من الوحي؛ إلا أن النبي ميز بينهما وبين القرآن. وكان لهذا التمييز مظاهر منها، أنه:

- لم يأمر بوضع أي منهما في أي سورة من سور القرآن (على عكس ما كان يفعل مع الوحي القرآني كما مر).
- نهى في البداية عن كتابة أحاديثه، حتى لا تختلط بالقرآن، وحتى تقتصر جهود الكاتبين المحدودة على العناية به؛ فقال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**»[3]. لكن لما استقر أسلوب القرآن وجرسُه في الأذهان والأسماع أذن بكتابتهما؛ فقال: «**اكتبوا لأبي شاه**»، وكتب كتبًا حدد

(١) سيأتي هذا النص كاملًا في سياقه بعد قليل.

(٢) كان ذلك في البداية، وسيأتي أن النبي سمح بتدوين الحديث فيما بعد.

(٣) مسلم بشرح النووي المجلد٦ ج١٨ ص١٢٩ رقم (٣٠٠٤).

فيها مقادير الزكاة في الإبل والغنم، وكتب بعض أصحابه الحديث؛ فكتب عمرو بن العاص عندما قال له النبي: **«اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»**، وكانت هناك كذلك صحيفة لعلي يكتب فيها الأحاديث[1].

- لم تأت رواية على الإطلاق يشتم منها أن النبي نظر إلى أي من النصوص التي تنتمي للحديث النبوي أو القدسي على أنه قرآن، أو نظر إلى القرآن على أنه ينتمي إليهما، أو أنه تردد في نسبة نص من القرآن إلى أي من الجانبين. بل كانت الحدود واضحة تمامًا لديه ابتداء من لحظة التلقي.
- نسب النبي القرآن، ابتداء: لفظًا ومعنى، لله، ونسب الحديث القدسي لله، دون أن يذكر أن لفظه أيضًا من الله، ونطق بالحديث النبوي دون نسبته لله وإن كان وحيًا.
- بين النبي أن القرآن متعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها؛ في حين أنه لم يذكر الشيء ذاته عن الحديث بنوعيه. فطوال حياته لم يرد عنه أنه تلا في صلاته شيئًا من الحديث النبوي أو القدسي، ولم يطلق لفظ تلاوة على غير القرآن[2].
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن للقرآن أصلًا في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[3]، وليس كذلك نوعَا الحديث.
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) بوصف القرآن أنه: تنزيلٌ وكتابٌ؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ

---

(١) الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم المجلد٦ ج١٨ ص١٣٠ رقم (٣٠٠٤)، وراجع: د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ٦١، ود. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة صفحات: ٤٢٣ - ٤٤٨، ود. همام عبد الرحيم سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين ص٤٠.

(٢) ولقد تشكل هذا الوعي لديه ﷺ بمثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

(٣) الواقعة: ٧٧-٧٩.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[1]، في حين أنه لم يصف كِلَا نوعي الحديث بذلك.

- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن القرآن معجز ومتحدى به: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[2] وليس ذلك لنوعي الحديث.
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن القرآن قد تعهد الله بحفظه من التحريف ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]، ولم يأت هذا التعهد لنوعي الحديث.

نقول إذن: إن تفريق النبي ﷺ بين الجانبين المذكورين هنا؛ دليل على بطلان دعوى نولدكه أن الوحي إلى محمد ﷺ لم يكن سوى صوته الداخلي؛ إذ لو كان كذلك؛ لما استطاع محمد ﷺ أن يفرق بين هؤلاء الثلاثة.

ج- إقرار نولدكه بأن النبي كان يميز بين القرآن وغيره من الوحي:

إن نولدكه يعترف بشمول الوحي غير القرآن، وبأن النبي كان يفرق بين القرآن وغيره من الوحي؛ يقول[4]:

"قبل أن نحدد أساليب الوحي، نذكر أن كلمة وحي عند المسلمين لا تشير فقط إلى القرآن، وإنما تشير إلى كل إلهام للنبي، وإلى كل أمر إلهي حتى إن لم تُقدَّم كلماتُه أبدًا على أنها قرآن... إن معظم أنواع الوحي التي فُصِّلت من قبل لا تقتصر على الوحي القرآني[5].

(١) فصلت: ٢، ٣، الإنسان: ٢٣، الإسراء: ١٠٦، وأيضًا الآيات: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه: ٢-٤].

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية: ق١ ص٢٠ - ٢٤.

(٥) ويحيل في ذلك إلى الإتقان ص١٠٤.

ويقول[1]: "حسب كم هائل من الروايات؛ فإن محمدًا تلقى وحيًا في المناسبات المختلفة: تنبيهات أو نصائح وأوامر بشأن الحاضر أو المستقبل. من هذه الروايات الكثيرة نكتفي بعدة أمثلة: يبتعد محمد من طريق عمرو بن جحاش الذي أراد قتله بحجر بناء على الوحي الذي جاءه فجأة. يتلقى محمد إرشادًا إلهيًّا بشأن المكان الذي يجد فيه جملًا ضلَّ. يقول أُسيد لمحمد: إن كان هذا أمرًا من السماء فافعله... وأوحي للنبي أن الله أدخل أبا لبابة في رحمته. وأُخبر عبر الوحي بحقيقة بيت الصلاة الذي أقامه بنو سالم. وجاءه الجواب وحيًا عن سؤال في الجعرانة عن صوابية فعل رجل تعطر وارتدى جبة".. ثم يقول[2]:

"إنه كما نعرف من تاريخ الأديان فإن الأنبياء لهم اتصال بلا انقطاع تقريبًا بالمقام الإلهي. فالنبي لا ينصت لإلهاماته أو خواطره *ihre Eingebung* فقط عند الأحداث العظيمة أو المهمة؛ بل أيضًا عند الأمور اليومية غير المنحصرة. بناء على ذلك فإنه يمكننا القول: إن محمدًا شعر بأن صور وحي متعددة أخرى بالإضافة إلى نصوص القرآن تؤثر عليه. بالإضافة إلى ذلك فإننا نُذَكر أنفسنا بتصريحاته الشخصية[3] الكثيرة؛ لذا يجب أن يُطرح سؤال: كيف أمكنه أن يجد طريقه في هذه الفوضى؟".

[ويجيب][4]: "تعود النصوص القرآنية حسب تفسير محمد الخاص إلى كتاب

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٩-٢٦٠.

(٣) يقصد كلمات النبي التي تدخل تحت اسم: الأحاديث النبوية. ومن المعلوم أن ثمة فارقًا بين الحديث والسنة؛ فالحديث يشمل كل ما صدر عن النبي حتى إن كان منسوخًا أو كان متعلقًا بصفاته الخِلقية والجِبلية، إذ لا يقصد من روايته الاتِّباع، ويشمل الأحاديث المنسوخة وأخبار الجاهلية الواردة في كتب الحديث. أما السنة فهي: ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية من مبدأ بعثته حتى وفاته. فالحديث أعم من السنة من حيث المفهوم. وروي عن ابن مهدي أنه قال: سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعًا. راجع د. همام عبد الرحيم سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين ٢٨، ٢٩ [المؤلف].

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٦٠.

محفوظ في السماء. لذا فإن محمدًا يعدها وحدها قرآنًا ينتمي – حسب اعتقاده – إلى تلك النسخة الأصلية السماوية[1]. يمكننا أيضًا أن نلحق بهذا الأساس الشكلي الخالص آخرَ ماديًّا، هو أنه [أي النص القرآني] بشكل عام يجب أن يعالج القوانين السارية والأمور المهمة للإيمان".

ثم يقول[2]:

"إننا لم نستطع حتى الآن أن نفهم حديثًا بشكل مؤكد على أنه قرآن. وعلى الجهة المقابلة فإنه يبدو – كما سيشار إليه بالمزيد فيما بعد في القسم الثاني[3] – أنه كذلك لا يوجد موضع قرآني يحال بدليل إلى الحديث. هذه النتيجة السلبية تتعلق؛ من جهة بما هو محتمل من صعوبة في المشكلة ونقص وسائلنا المساعدة؛ ومن جهة أخرى بما هو مستقر ومؤكد أيضًا من أمان وخبرة كبيرة روعيتا عند جمع القرآن. إن الفضل الأكبر في ثبات النقل منشؤه محمد ذاته؛ إذ من الراجح أنه منذ اللحظات الأولى التي تلقى فيها اليقين بحصوله على بلاغات من كتاب سماوي؛ فقد تلقى – بكل تأكيد بالإضافة لذلك وبنفس اليقين – أن عليه أن يخدم وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة، بعكس الكتاب المقدس لليهود والنصارى. لذلك كان من الواجب عليه أن يكون لديه اهتمام بأن يحفظ نصوص وحي تلك الوثيقة الإلهية من الضياع أو التحريف بواسطة التدوين الكتابي. وفي الحقيقة إن الروايات تحدد؛ ليس فقط الكُتَّاب الذين أملى عليهم محمد القرآن؛ بل أيضًا شكل أدوات التدوين.

---

(١) قارن أيضًا الملاحظة الصحيحة بشأن الحديث القدسي الواردة في المباني، الفصل الرابع، وفيه: "ولا تجوز تلاوة شيء منه في الصلاة؛ إذ لم ينزل بالنظم الذي نزل به سائر القرآن الذي أُمرنا بتلاوته وكتابته في المصاحف، ونقله إلينا العامة عن العامة" (نولدكه).

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٦٠-٢٦١.

(٣) يقصد القسم الثاني من كتابه: *Geschichte des Qorâns* تاريخ القرآن، وهو يدور حول جمع القرآن وتدوينه، وقد ترجمته، وسيكون بإذن الله تعالى مكملًا لهذه الدراسة إن كان في العمر بقية.

في مقابل هذا فإن التعرف على كل بلاغات *Kundgebungen* الله الأخرى غير المدونة رسميًّا وقع بالمصادفة وقد آل إلى النقل الشفهي". اهـ.

وهنا نجد نولدكه يُقر بالآتي:

١- شمول الوحي غيرَ القرآن، وأن النبي ﷺ كان من الأنبياء الذين لهم اتصال بلا انقطاع بالمقام الإلهي.

٢- أنه ﷺ مَيَّزَ بين وحي القرآن ووحي غيره.

٣- يرى نولدكه أن تمييز النبي قام على أساسين:

أولهما: اعتقاده أن للقرآن أصلًا في اللوح المحفوظ؛ فالذي ينزل من الوحي: إن كان منتميًا للَّوح المحفوظ فهو من القرآن وإلا فهو من الحديث.

ثانيهما: أن النصوص القرآنية يجب أن تعالج أمور الإيمان المهمة والتشريع؛ فما كان من الوحي كذلك فهو من القرآن وما لم يكن منه كذلك فمن غيره.

٤- يعترف نولدكه في لحظة نادرة في كتابه أنه لم يستطع أن يصل إلى حديث يكون في الأصل منتميًا للقرآن، ولم يصل إلى نص قرآني يمكن أن يكون حديثًا.

٥- ويبين أسباب ذلك فيشير إلى:

- **السبب المحتمل** وهو صعوبة المشكلة ونقص وسائل المستشرقين البحثية المساعدة.
- **السبب الأكيد** وهو الأمانة والخبرة الكبيرة التي روعيت عند جمع القرآن.
- **حصول اليقين** لدى النبي ﷺ منذ الوحي الأول أن ما يأتيه هو كتاب سماوي، وأن عليه أن يخدمه ويحفظه من التحريف الذي حصل

لكتابي اليهود والنصارى؛ لذا فقد اهتم بالتدوين الكتابي للقرآن بخلاف وحي الله الآخر (الأحاديث) التي تركت للنقل الشفهي.

ويعنينا هنا على نحو خاص إقرار نولدكه[1] أن النبي مَيَّز بين محتوى نوعين من الوحي: نوع هو قرآن، ونوع هو حديث قدسي أو نبوي؛ وهذا الإقرار يناقض دعواه التي نعالجها هنا وهي (أن الوحي إليه لم يكن سوى صوته الداخلي وأنه ﷺ اعتبر كل ما يتحرك بداخله صوت الله).

د- **مناقشة نولدكه بشأن مصدر وعي النبي:**

إن نولدكه وهو يقر بأن النبي فرَّق بين وحي القرآن ووحيِ غيره؛ وجدناه يُسْنِد دورًا للنبي في تحديد: ماذا ينتمي للقرآن وماذا ينتمي للحديث؛ بأن ادعى أن النبي (عدَّ الوحي الذي يعالج أمور الإيمان المهمة والتشريع؛ هو القرآن وما عداه فليس من القرآن).

ولديَّ هنا ملاحظتان على افتراض نولدكه (وجودَ التشريع والأمور المهمة للإيمان) أساسًا لتمييز النبي بين القرآن وغيره من الوحي:

الأولى: عدم استقامة هذا الافتراض مع سابقه (الذي بين فيه نولدكه أن النبي فرق بين النوعين بإدراكه أن القرآن وحده تنزل من اللوح المحفوظ بخلاف الحديث)؛ إذ ما دام الوجود في اللوح المحفوظ هو الأساس في التمييز بين نوعي الوحي؛ فلا دخل إذن للنبي في هذا التمييز؛ لكن افتراض نولدكه وجود التشريع وأمور الإيمان المهمة أساسًا لدى النبي للتمييز؛ يجعل للنبي دورًا فيه، وهو تناقض بيِّن.

---

(١) وليس نولدكه وحده هو الذي أقر بهذا؛ فقد أقر به أيضًا المستشرق مونتجمري وات (محمد في مكة ٩٥) حيث قال: "يجب علينا أولًا أن نميز القرآن عن الوعي السوي لمحمد؛ لأن التمييز كان شيئًا أساسيًّا بالنسبة له؛ فقد ميز منذ البداية بعناية بين ما ينزل عليه من مصدر خارق - كما كان يعتقد - وبين ما يصدر عن أفكاره الخاصة. أما كيف قام بهذا التمييز؟ فإن هذا لا يظهر بوضوح. أما أنه قام بهذا التمييز؛ فإنه شيء مؤكد تأكيد الحوادث التاريخية. ونحن لا نتخيله يدخل آيات من تأليفه بين الآيات التي تنزل عليه من مصدر مستقل عن معرفته كما كان يعتقد".

الثانية: عدم صدق هذا الافتراض في الواقع. إذ إن القرآن ليس مقتصرًا على (التشريع وأمور الإيمان المهمة فقط) كما افترض نولدكه، وليس الحديث خلوًّا منهما كما هو لازم افتراضه. فهناك نصوص قرآنية كثيرة تعالج غير هذين البابين. وعلى الجهة المقابلة هناك عدد من الأحاديث القدسية والنبوية تعالج (التشريع وأمور الإيمان المهمة) دون أن يضم النبي شيئًا منهما إلى القرآن.

والحق أنه لا دخل للنبي ﷺ في تحديد نوع الوحي الذي يتلقاه من ربه تعالى؛ إذ إن ذلك لله وحده الذي ميز بين الجانبين ابتداء.

هـ- تمييز الله بين الجانبين ابتداء:

إذا كنا قد ذكرنا من قبل مظاهر تمييز النبي بين الجانبين؛ فإن الله تعالى قد ميز وحي القرآن ابتداء عن وحي غيره منذ لحظة تنزله عليه ﷺ بالآتي:

١- مَيَّزَه في كيفية نزوله؛ فقد نزل كله يقظة، ومسبوقًا دائمًا بالشدة والثقل على النبي، وبوساطة دائمة من جبريل مع صلصلة الجرس. ولم ينزل منه شيء منامًا، ولم يتلق منه شيئًا نفثًا في الرُّوع، أو في حالة تشكل جبريل في هيئة رجل.

٢- مَيَّزَه بأن أوكل إلى ذاته العلية سبحانه أمرين؛ هما: حفظ النبي له بحروفه وألفاظه فضلًا عن وعيه لمعانيه كما سمعه من جبريل تمامًا. وتبليغه للناس على النحو ذاته، وأن يستمر حافظًا له على النحو الذي قرأه على أصحابه به أول مرة حتى يلقى الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1].

كل هذا بينما لم يكن يقدر ﷺ أن يحفظ غيره من مأثورات الشعراء والبلغاء من العرب، حتى إن كانت ذات بعد خلقي سام كخطب قس بن ساعدة الإيادي مثلًا على الرغم من فصاحتها وحفظِ غيره لها.

(١) القيامة: ١٦-١٩.

عن ابن عباس قال: لما قدم أبو ذر على النبي ﷺ قال له: **«يا أبا ذر، ما فعل قس بن ساعدة؟»**. قال: مات يا رسول الله. قال: **«رحم الله قُسًّا! كأني أنظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه»**. فقال أبو بكر: أنا أحفظه. قال: **«اذكره»**؛ فذكره؛ وفيه الشعر..[1].

٣- مَيَّزَه بما لم يحصل للحديث القدسي والنبوي باستمرار مدارسة جبريل له مع النبي ﷺ؛ فقد شهد ثلاثة على الأقل من أصحاب محمد ﷺ أن جبريل كان يدارس النبي القرآن كل ليلة في رمضان من كل عام، زادها فأصبحت مرتين كل ليلة في رمضان من العام الأخير في حياته ﷺ، أي: قبل وفاته بستة أشهر. وسنجد في هذه الشهادة ملاحظة لما يحصل للنبي من جراء لقائه بالملك كل ليلة لمدارسة القرآن، وهي أنه يكون أجود بالخير من الريح المرسلة: فعن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله القرآن؛ فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة)، وعن مسروق عن عائشة عن فاطمة عليها السلام؛ قالت: (أَسَرَّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين؛ ولا أراه إلا حضر أجلي)، وعن أبي هريرة نحوه[2].

٤- كما ميزه في شعور النبي وأصحابه، وإلى اليوم، بما لم يحصل للحديث القدسي والنبوي، من أنه على الرغم من نزوله آحادًا مفرقة في أكثر من عشرين عامًا؛ مما يستلزم في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ إلا أنه من أوله لآخره محكم السرد قوي الاتصال متآلف البدايات والنهايات لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك

---

(١) الإصابة ج٥ ص٥٥١ وما بعدها رقم (٧٣٤٥).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٤٣ الحديث برقم (٤٩٩٨)؛ بالإضافة إلى حديث مسروق عن عائشة عن فاطمة؛ دون رقم من نفس باب: كان جبريل يعرض القرآن على النبي؛ وحديث أبي هريرة رقم (٤٩٩٨) من نفس الباب.

ولا تخاذل. وهذا لا يمكن أن يتأتى لأي كلام مرّ تكونه بمثل المدة الطويلة التي نزل القرآن في أثنائها حتى لو كان هذا الكلام أحاديث النبي محمد[1].

"خذ مثلًا حديث النبي وهو ما هو في روعته وبلاغته، لقد قاله الرسول في مناسبات مختلفة لدواع متباينة في أزمان متطاولة؛ فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده كتابًا واحدًا يصقله الاسترسال والوحدة من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون. ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقع، وكلام ملفق ينقصه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجه الأسماع والأفهام"[2].

٥- ميَّزه بجرس ألفاظه وجمال عباراته وإعجازه البياني؛ فلم يشبهه في ذلك الحديثُ رغم فصاحته. يقول أ. مالك بن نبي[3]: (من المقطوع به أن الأحاديث المحمدية والوحي القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة. فالعبارة القرآنية لها نسق وجرس تعرفه الأذن، ولها هيئة تركيبية وألفاظ خاصة).

ولقد مر بنا اعتراف نولدكه الذي نعيده هنا لأهميته؛ إنه يقول: "إننا لم نستطع حتى الآن أن نفهم حديثًا بشكل مؤكد على أنه قرآن. وعلى الجهة المقابلة فإنه يبدو... أنه كذلك لا يوجد موضع قرآني يحال بدليل إلى الحديث".

كما اعترف نولدكه بذلك أيضًا عندما تناول بعض الأحاديث (التي ادعى بعض المستشرقين أنها تنتمي للقرآن) مثل حديث: **«لو أن لابن آدم واديًا من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو أن له ثانيًا لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**[4].. حيث رفض أن يعده قرآنا لأن "تعبير ابن آدم غريب عن لغة القرآن"[5]. ونفس

---

(١) راجع الشيخ محمد الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص٥٢-٦٢.

(٢) المرجع السابق ج١ ص٦٢.

(٣) مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ١٧٢.

(٤) رواه الشيخان.

(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٤٢.

الشيء تقريبًا قاله بشأن القول: «**إن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية..**». حيث قال عن كلمات: (الحنيفية) (اليهودية) (النصرانية): "إنها غريبة عن القرآن"[1].

كما قال[2]بشأن دعوى قرآنية: (وهو أب لهم) بعد قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3]: "إن الإشارة إلى النبي كأب للمؤمنين لا تثبت من خلال القرآن".

أقول أخيرًا: إن هذا مما ميز الله به وحي القرآن إلى نبيه ﷺ عن غيره مما يوحيه الله له؛ مما شكل تميزًا واضحًا بدأ في وعي النبي منذ لحظات الوحي الأولى. وبقي إلى أن فارق رسول الله الدنيا.

الوجه الثاني: أننا نجد في القرآن والوحي غير المتلوِّ مراجعة لبعض مواقفه وآرائه ﷺ:

وتمثل هذا في الآتي:

١- مراجعة الله نبيه ﷺ بشأن تصوره لبعض أولويات الدعوة:

لقد حدث أن تزاحم في الطلب على رسول الله ﷺ مسلم فقيرٌ كفيف البصر يحرص على سؤاله عن بعض شئون الدين؛ وبعضُ أغنياء المكيين وذوي النفوذ فيهم؛ الذين يقفون بمالهم ونفوذهم ضد الإسلام. فقدَّم رسول الله تصديه ﷺ لهداية أولئك المكيين على إجابة أسئلة الكفيف المسلم ولم يُعِره اهتمامًا ظنًّا منه أن إجابة أسئلة المسلم يمكن أن تحدث فيما بعد؛ أما أولئك المكيون ففي هدايتهم مصلحة كبرى للإسلام وقد لا يأتون مرة أخرى. ولما ألح المسلم الكفيف في سؤال النبي في أثناء انشغاله ﷺ بما ظن أنه الأولى بالتقديم عبس ﷺ في وجهه.

---

(١) نفسه.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٣.

(٣) الأحزاب: ٦.

وقد ظن ﷺ أن ما فعله هو الأَوْلى؛ لكن الوحي نزل عليه ﷺ مراجعًا له تصرفه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾[1].

تقول السيدة عائشة عن عبد الله بن أم مكتوم: (إنه الذي عاتب الله تبارك وتعالى فيه نبيه ﷺ حيث أتى النبيَّ وعنده عتبة وشيبة؛ فأقبل رسول الله عليهما فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾)[2].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: (أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى، إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان. ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات. ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾)[3].

إن هذه المراجعة من الله تعالى لنبيه تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الوحي لمحمد لم يكن صوتًا داخليًا له؛ حيث اتضح الفارق بين تصور النبي لأولويات الدعوة (هذا التصور ينتمي لعالم الصوت الداخلي حسب تعبير نولدكه) وبين الوحي الذي نزل مخالفًا لذلك التصور.

موقف نولدكه من هذا الاستدلال:

كان لنولدكه في أثناء تعرضه للآيات المذكورة نصان يستحقان التعقيب:

(١) عبس: ١-١١.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٧٥٣ رقم (٦٦٧١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. وأخرج الترمذي (٥/ ٤٣٢ رقم ٣٣٣١) نحوه، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد.

(٣) التكوير: ٢٤.

النص الأول: خلط فيه نولدكه الحق بالباطل؛ فامتدح إنسانية الإسلام، لكنه مع ذلك زعم أن النبي هو الذي عاتب نفسه (اتهم نفسه بالضعف حسب تعبير نولدكه)؛ يقول[1]:

"في السورة [٨٠ (عبس)]، يعاتب الله النبي أنه عندما كان يعرض الإسلام على رجل غني؛ لم يُعِرْ سمعه لرجلٍ أعمى فقير كان يطمع في الاستزادة من الإيمان. ولقد اتهم محمد نفسه بالضعف حيث أعطى أثرياء مدينته فوق ما يستحقون.

إنه لشيء رائع لكنه مميز لأكثر أديان الوحي إنسانية أن يوجد في القرآن تسجيل لهذه الكلمات".

"In Sura 80 tadelt Gott den Propheten. daß er. gerade dabei. einem reichen Manne den Islam vorzutragen. einem armen Blinden. der nach Belehrung über den Glauben begierig war. kein Gehör schenkte. Muhammed macht sich also selbst Vorwürfe über seine Schwäche. die Mächtigen seiner Stadt über Gebühr bevorzugt zu haben. Es ist erstaunlich. aber charakteristisch für die menschlichste aller Offenbarungsreligionen. daß diese Worte in den Qoran Aufnahme gefunden haben".

وهنا أقول:

إنه على الرغم من ثناء نولدكه - الواضح في قوله أعلاه - على ورود هذا العتاب في القرآن؛ إلا أن لنا على قوله هذا ملاحظتين:

الملاحظة الأولى منهجية؛ فنولدكه بعد أن قال: "في سورة عبس يعاتب الله النبي"؛ قال بشأن العتاب ذاته: "ولقد اتهم محمد نفسه بالضعف.."؛ وفي هذا تناقض؛ إذ إنه بعد أن ذكر أن الله هو الذي عاتب النبي ﷺ؛ إذا به يدعي أن محمدًا هو الذي اتهم نفسه: يعني عاتبها.. فكيف يستقيم نسبة الأمر الواحد إلى فاعلَين؟

والملاحظة الثانية موضوعية ومنهجية معًا؛ وتتعلق بزعم نولدكه أن النبي ﷺ هو

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩٥-٩٦.

مصدر العتاب. وهو زعم غير مقبول لثلاثة أسباب:

الأول: إن النبي لو كان حقًّا مصدر العتاب؛ فلِم صدر منه أصلًا ما يستوجبه؟

إن حدود تصور النبي للأمر، وقفت عند التصرف الذي فعله، وهو اهتمامُه بهداية ذوي النفوذ المكيين، (الذين في هدايتهم مصلحة كبرى للإسلام، وفق اجتهاده ﷺ)، وتأخيرُه إجابة طلب الرجل الكفيف إلى وقت آخر، (الذي تم وفق اجتهاده أيضًا)، ظنًّا منه ﷺ أن هذا التصرف هو الأفضل لصالح الإسلام[1].

لقد كان هذا هو كل ما عند النبي عن هذا الأمر؛ لكن الآيات جاءت تعاتب النبي على عبوسه في وجه الكفيف الملِحِّ على المعرفة السريعة، وتُوجّه النبي إلى أن اهتمامه بتعميق الإيمان داخل نفسٍ مهتديةٍ مقبلةٍ عليه يُرجى نفعها؛ أولى بالرعاية من الإلحاح به على أنفسٍ معرضةٍ عنه؛ مهما كان نفوذها وقوتها.

إن المراجعة القرآنية الواضحة لتَصَرُّفِ النبي هنا يُفهم منها أن مضمونها كان غائبًا عن ذهن النبي لحظة تقديمه هداية أولئك المكيين على إجابة أسئلة الكفيف المسلم. لكن زعم نولدكه أن محمدًا ﷺ كان هو مصدر هذه المراجعة يستلزم أن مضمونها كان حاضرًا في ذهنه ﷺ. وهذا تناقض لا يُحَلُّ إلا بزعم آخر لم يجرؤ نولدكه على ادعائه هو: افتراضه ﷺ محتالًا: يفعل أمرًا وهو يدرك ابتداء أنه خلاف الأولى، ثم يراجع نفسه ويعاتبها لفعلها إياه، ولا يُظهرُ في الأسلوب أنه هو الذي يعاتب نفسه؛ ليُوهم الناس أن الله هو الذي يراجع تصرفاته!!

---

(١) يقول أ. سيد قطب (الظلال: ج٦ ص: ٣٨٢٤ و٣٨٢٥) بهذا الشأن: (يجيء هذا الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر. لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام. فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار... والتصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية، والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي، إنما هي الدعوة أولًا وأخيرًا).

هذا هو الافتراض الوحيد المترتب على زعم نولدكه أنه ﷺ مصدر هذه المراجعة؛ لكن حديث نولدكه عن النبي في كل كتابه ينفي عنه ﷺ أي لون من الخداع والاحتيال والكذب. لذا فنولدكه يجب عليه حتى تتسق رؤيته عن النبي أن يقول: إن محمدًا ﷺ لا يمكن أن يكون مصدر هذه المراجعة أو العتاب.

الثاني: إن الذي عوتب فيه النبي هنا كان أمرًا عمليًّا ولم يكن قولًا نطق به ﷺ. فلو افترضنا أن ذهن النبي ﷺ كان خلوًّا من مضمون تلك المراجعة لحظة تصرفه المذكور؛ ثم ما لبث أن تشكل في وعيه بعد ذلك؛ فكان يكفيه ﷺ (لو كان هو مصدر هذا العتاب) أن يُظهِر أثر ذلك الفهم الجديد عمليًّا دون الحاجة لإظهاره نظريًّا بتسجيله في القرآن، (وبخاصة أن أثر اجتهاده القديم كان سلوكيًّا عمليًّا ولم يكن قولًا قاله).

لكن المراجعة جاءت قولًا من الله أولًا؛ فأثمرت سلوكًا عمليًّا من النبي ﷺ ثانيًا[1]؛ وفي هذا دلالة على أنه لم يكن هو مصدر تلك المراجعة.

الثالث: إن رسول الله كان حريصًا[2] على هداية أولئك الأغنياء المكيين، ذوي النفوذ الذين يقفون بمالهم ونفوذهم ضد الإسلام.

ولو كان النبي مصدر هذه المراجعة لما جاء فيها بمواجهة هؤلاء بآيات فيها (عتاب له على تقديمه التصدي لهدايتهم على إجابة أسئلة الأعمى المسلم الفقير)، ولما

(١) من مظاهر هذا السلوك العملي: أنه ﷺ كان يقول لعبد الله ابن أم مكتوم كلما لقيه: «**أهلًا بمن** عاتبني فيه ربي»، ثم استخلفه مرتين على المدينة. (محمد بن حبان: الثقات ٣/ ٢١٤ رقم ٧١٠). وزاد ابن سعد (الطبقات الكبرى ٤/ ٢٠٥ دار صادر بيروت) عدد مرات استخلافه إلى إحدى عشرة مرة. وعند محمد بن حبان (مشاهير علماء الأمصار١/ ١٦ رقم ٥٣) أن رسول الله ﷺ كان يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته ﷺ.

(٢) ظهر هذا الحرص من ظَنِّه أن التصدي لدعوتهم أَوْلى من الرد على سؤال ابن أم مكتوم. كما ظهر من خلال قول الله لنبيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

جاء فيها بوصفهم بالاستغناء عن الحق: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾[1].

النص الثاني: تعرض فيه نولدكه لأمر فرعي حيث رفض أن يكون الأعمى هنا هو ابن أم مكتوم؛ قال[2]:

"Gewöhnlich (Muwatta' 70f. His. 240. Ibn Sa'd ed. IV. I. S. 153. Tirm. kitab al - tafsir. Wah. Ibn Hagar II. p.1245. Die Kommentare. Spr. Life 186. Leben II. 317. Muir II.128. Caetani I. 297) nennt man den Ibn Umm Maktum. aber dieser muß nun einmal überall als Repräsentant der Blinden auftreten. Man erwartet hier einen Mann von niederem Stande. während jener der quraischitischen Familie 'Amir b. Lu'ai angehörte und seine Mutter gar aus dem damals zugleich mit den 'Abd Sams angesehensten Geschlechte Makhzum war. Vgl. über ihn Ibn Sa'd a a.O. lbn Hagar a. a. 0. Usd al -.ghaba IV. 127".

إن "تحديد الرجل الأعمى هنا بأنه ابن أم مكتوم أمر شائع في الموطأ وابن هشام وابن سعد والترمذي والواحدي وابن حجر والتفاسير وحياة محمد لـ شبرنجر وحوليات الإسلام لـ كايتاني وحياة محمد لـ موير. لكنه: (عبد الله ابن أم مكتوم) يظهر في كل مرة ممثلًا للعميان. والمتوقع هنا رجل من مكانة متدنية في حين أن ذلك الرجل (عبد الله ابن أم مكتوم) ينتمي لعائلة عامر بن لؤي القرشية، وأمه من بني عبد شمس الذين كانوا في ذلك الوقت الأكثر جاهًا في بني مخزوم".

وأقول: إننا نلاحظ استبعاده أن يكون الأعمى في الموضع القرآني الذي معنا هو ابن أم مكتوم؛ الذي يقول نولدكه عنه: إنه يُطرح دائمًا ممثلًا للعميان.

والصواب هو ما ذهبتْ إليه المراجع التي ذكرها نولدكه مُضَعِّفًا رأيها؛ زاعمًا أنها تنظر إلى ابن أم مكتوم دائمًا ممثلًا للعميان؛ وذلك لأن هذه المراجع اعتمدت

(١) (لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة، مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم، في بيئة لا مكان فيها لغير تلك الاعتبارات). في ظلال القرآن: ج٦ ص٣٨٢٦.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩٥ هامش٦.

على الرواية الثابتة الصحيحة[1] التي تصرح أن الأعمى المشار إليه هنا هو ابن أم مكتوم. ولا يقلل من شأن الرواية رؤيةُ نولدكه العقلية في مواجهتها؛ وذلك لأن ما يستدل به نولدكه لاستبعاد كون الأعمى هو (ابن أم مكتوم) أن أبويه ينتميان لأسرتين لهما مكانة اجتماعية كبيرة، أما الذي تقصده الآيات فلا بد - من وجهة نظره - أن يكون شخصًا ذا مكانة اجتماعية متدنية.

لكن استدلاله يَرِدُ فقط إن كان قد ثبت أن رسول الله قد انشغل عن الرجل بسبب ضعف مكانته وفقره. وهذا، فضلًا عن أنه لا يُلمح من قريب أو بعيد كسبب للعتاب في الآيات، فإنه كذلك لم يرد على الإطلاق في الروايات؛ ولا ندري من أين افترضه نولدكه. وقد ذكرنا أعلاه أن رسول الله ظن أن الأولى بالدعوة في تلك اللحظة هم أولئك المكيون الذين قد لا يأتون مرة أخرى؛ أما هذا المسلم السائل فيمكن أن يجيبه النبي فيما بعد بغض النظر عن مكانته أو وجاهته، فقره أو غناه[2]. وبالتالي فلا ندع ما لدينا من رواية صحيحة إلى وهم نولدكه وظنه.

وأقول أخيرًا: إنه على الرغم من أن تحديد اسم الأعمى المقصود في الآيات ليس أمرًا ذا بال في نقطة البحث هنا؛ إلا أننا قد ألقينا بتناولنا لموقف نولدكه بشأنه ضوءًا على منهجه في البحث، حيث يترك الرواية الثابتة إلى الظن والوهم.

٢- مراجعة الوحي النبي في بعض ما انطوت عليه نفسه:

أ- نهيه عن تحريك لسانه بالقرآن لحظة نزوله:

لقد كان النبي "يُجهد ذاكرته في مستهل دعوته وهو يعاني حالة التلقي

---

(١) مر ذكر هذه الروايات.

(٢) لا يعني هذا أننا نسلم بما ذكره نولدكه من أن كون أبوي ابن أم مكتوم من أسرتين لهما مكانة اجتماعية كبيرة يقتضي أن يكون هو ذاته له نفس المكانة عند العرب قبل الإسلام؛ لأن هذا المقياس غير صحيح، فلربما حال فقره وعماه دون تحصيل تلك المكانة، ونحن نعلم أن بعض منكري نبوة محمد ﷺ تمنوا أن ينزل القرآن على غيره، لا لشيء إلا لفقره ويتمه على الرغم من أن أحدًا منهم لا يجادل في أن له نسبًا لا يطاوله واحد منهم رفعة وشرفًا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

لكي يثبت الآيات كما نزلت. وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر وهو يريد أن يحفظ كلامه فهو يكرره في نفسه"[1]. عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجل به يريد حفظه؛ فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[2]؛ "فالآية المذكورة تأتي بما يضاد هذا السلوك الطبيعي.. وتهدف إذن إلى مصادرة حريته ﷺ في استخدام ذاكرته.. وبذلك لا تتجاهل الآية حرية اختيار النبي وإرادته أن يدرب ذاكرته فحسب؛ بل تتجاهل أيضًا القانون النفسي لوظيفة التذكر نفسها. وهكذا نلاحظ مناقضة مزدوجة بين الظاهرة القرآنية وبين الذات المحمدية"[3]... وعلى صلة بهذا أيضًا تأتي الآية الكريمة: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[4].

إننا هنا نجد أن نفس النبي تحركت لحفظ نصوص الوحي المنزلة عليه لحظة تنزلها؛ ومن ثم اتخذ من الأسباب ما يحقق هذا: بأن كان يحرك لسانه بما ينزل عليه ظنًّا منه أن الحفظ موكول إليه؛ فإن لم يجهد نفسه فسيتفلت منه. هكذا كان النبي قبل نزول الآية المذكورة. ثم جاءت الآية بخلاف ما انطوت عليه نفس النبي تمامًا؛ حيث نهته عن أن يحرك لسانه ليعجل به، وأوكلت أمر حفظ النبي إلى الله وحده[5].

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ٢٧٧.

(٢) القيامة: ١٦، ١٧.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ٢٧٧–٢٧٨.

(٤) طه: ١١٤.

(٥) ولقد رأى أحد أساتذة اللاهوت الألمان في هذه الآية قريبًا مما ذهبت إليه يقول: (لتأكيد صحة وحيه تتحدث الآيات ١٦–١٨ القيامة.. لقد لاحظ كثير من الموحى إليهم أن تدخل أي أثر من قصد أو ميل شخصي؛ له تأثير ضار على نهر الوحي المتدفق اللاإرادي. لا يجوز للنبي أن يحرك لسانه وكأنه يشارك في صياغة الكلمات التي يقرؤها الملك. ينبغي عليه فقط أن يهدأ، وينتظر قراءة الملك. ولا شك أن الكلمات الإلهية ستثبت في ذاكرته ولن تمحوها الأيام). =

والتساؤل الذي يفرضه هذا التحليل الآن:

لو كان ما ادعاه نولدكه؛ من أن الوحي ليس سوى صوت النبي الداخلي؛ لجاء بوحي متسق مع رغبته في تحريك لسانه بالقرآن عند الوحي؛ أو على الأقل لما نزل وحي بهذا الشأن أصلًا؛ ولتَرك الأمر على ما هو عليه. لكن نزل الوحي مخالفًا لرغبته في أن يحرك لسانه، فبطلت بهذا دعوى نولدكه.

ب- نهيه عن تطليق حفصة:

قال عمار بن ياسر: (أراد النبي أن يطلق حفصة فجاءه جبريل فقال: لا تطلقها إنها صوامة قوامة)[1]. ففي هذا الحديث دلالة على أن الوحي غير الصوت الداخلي، وأنه ﷺ لم يَعُدَّ إرادته[2] تطليق حفصة وحيًا، وأن الوحي غير المتلوِّ لم يأت صدى لإرادته ﷺ، بل جاء بنهي صريح عن المضي في تنفيذها.

ج- نهي الوحي إياه عن الاستجابة لمطلب السادة؛ الفصل بينهم وبين العبيد في المجلس:

روى خباب بن الأرت في نزول قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3]؛ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله ﷺ حقروهم؛ فأتوا فخلوا به ﷺ وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك

= باول شفارتزَناو *Paul Schwarzenau* في كتابه:
Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 55.

(١) الآحاد والمثاني ج٥ ص٤٠٩ رقم (٣٠٥٢).

(٢) صوته الداخلي حسب نولدكه.

(٣) الأنعام: ٥٢.

مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد. فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»؛ قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا. فدعا بصحيفة ودعا عليًّا ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية... قال خباب: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته. وكان رسول الله يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(١)]. قال خباب: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم[(٢)].

إن النبي هنا كان قد همَّ أن يفصل بين مجالس السادة ومجالس العبيد بين يديه؛ فيجعل لهؤلاء مجلسًا ولأولئك مجلسًا؛ ظنًّا منه أنه إجراء لا يعدو كونه شكليًّا يتجاوز به ذلك الحاجز الذي زعم أولئك السادة أنه هو الذي يمنعهم عن اتباع الحق.

وأراد ﷺ بذلك أن يقطع جميع أعذارهم ويقيم الحجة عليهم حتى أمام أنفسهم. هكذا كانت إرادة النبي.. فهل وافقه الوحي عليها؟

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) ابن ماجه: السنن ج٢ ص١٣٨٢ رقم (٤١٢٧)، وراجع تفسير الطبري للآية [٥٢: الأنعام]. وقال الشيخ أحمد شاكر في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقد روى مسلم والنسائي والمصنف بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص. وقال الشيخ الألباني: صحيح. لكن قال ابن كثير (التفسير ج٢ ص١٢٨): هذا حديث غريب؛ فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. وأقول: لا وجه لما قاله؛ لأن اقتراحهما كان قبل إسلامهما، وليس في الحديث ما يشير إلى أنهما قالاه وهما مسلمان. كما أنه ليس فيه أنهما أسلما بعد ذلك في مكة.

لا، لم يوافقه.. بل نهاه عن إمضاء ما كان قد هم به، وسَمَّى الوحيُ (الفصلَ المقترح) طردًا للذين يدعون ربهم.. ووصف من يطردهم بأنه من الظالمين.

ولم يقف الأمر عند حد نهي الوحي رسول الله عن عدم الفصل؛ بل تجاوزه إلى أمر النبي أن يصبر على مجالسة أولئك الأعبد الفقراء، ونهاه من جديد عن إجابة طلب أولئك السادة المغترين الغافلين، وأمره أن يقول الحق مجردًا عن أي اعتبار آخر، حتى لو كان هذا الاعتبار هو ذلك الإجراء الشكلي؛ لأن هؤلاء لو أرادوا الإيمان لآمنوا دون حاجة لذلك الفصل.

إن الوحي هنا جعل النبي إزاء نهيين وأمرين، ووضح له المفهوم الحقيقي للفصل المقترح بين السادة والعبيد، وكشف أمام النبي أن الإيمان إرادة؛ فلو أراد أولئك السادة أن يؤمنوا لآمنوا دون الحاجة لأي إجراء من قبيل ما اقترحوه.. فهل كان كل ذلك لدى النبي لحظةَ أن همَّ بإجابة طلبهم؟ بالقطع لا؛ وإلا لكان النبي داخل دائرة التحايل والخداع التي نفاها نولدكه عن النبي بكل حسم.

وإذا استخدمنا مصطلحات نولدكه هنا فإن:

- ما كان لدى النبي تصورٌ عنه قبل الوحي؛ قد جاء الوحي مخالفًا له، أي مخالفًا لصوت النبي الداخلي.
- وكل الذي جاء به الوحي في حالتنا هذه؛ لم يكن لدى النبي قبل الوحي تصور عنه؛ وهذا يعني أنه ليس صوته الداخلي.

فلم يبق إذن أمام كل من يزعم أن الوحي إلى النبي لم يكن سوى صوته الداخلي؛ إلا أن يراجع نفسه ليدرك مفارقة الوحي لذات النبي ونفسِه مفارقة تامة.

٣- مراجعته بشأن الموقف من أسرى بدر:

إن النبي عندما أخذ بالرأي القائل بإطلاق أسرى المشركين في بدر بمقابل خلافًا

لرأي عمر[١]؛ نزل القرآن يعاتب النبي في مبدأ اتخاذه أسرى قبل أن يُمكَّن للإسلام؛ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].
وعندما جاء عمر إلى النبي وأبي بكر وجدهما يبكيان[٣]، وفي روايةٍ أن النبي لقي عمر وقال له: **«كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء»**[٤].

وعند الإمام أحمد[٥]: فلما أن كان من الغد قال عمر: غدوتُ إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال: فقال النبي ﷺ: **«الذي عَرض عليَّ أصحابُك من الفداء؛ لقد عُرض عليَّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة؛ لشجرة قريبة»**.

فلو كان الوحي ليس سوى صوت رسول الله الداخلي؛ لحصل توحد في الموقف من الأسرى بين (اختياره هو) وبين (ما نزل به الوحي). لكن هذا التوحد لم يحصل ونزل الوحي مخالفًا على نحو ما رأينا.

ثم إن آية الأنفال المذكورة وما بعدها أتاحتا لي أيضًا قدرًا من التأمل النفسي سبقني إليه الدكتور دراز فأنقل قوله هو.

---

(١) لم يكن اختيار عمر رضي الله عنه في مسألة الأسرى ونحوها - كما يقول د. دراز - إلا مظهرًا من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه، وإن كادت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية. فكانت موافقته للوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب. النبأ العظيم ٢٧.

(٢) الأنفال: ٦٧، ٦٨.

(٣) أبو عبيدة: الأموال ١١٥، وراجع: مسند أحمد: ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨).
والطبري: التفسير للآيتين ٦٧، ٦٨ الأنفال.

(٤) الحاكم: المستدرك ج٢ ص٣٥٩ رقم (٣٢٧٠)؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط مسلم.

(٥) المسند ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨).

يلاحظ أن: "الآية رغم أنها لم تنزل إلا بعد إطلاق سراح أسارى بدر وقبول الفداء منهم قد بُدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن خُتمت بإقرارها وتطبيب النفوس بها.. فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ إن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله؟

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ههنا البتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا سيد يقول لعبده: لقد أسأتَ! ولكني عفوتُ عنك وأذنت لك!"[1].

فهذا إذن يدل على بطلان دعوى نولدكه. ولا يمكن هنا إلا افتراض الوحي خارج دائرة ذات محمد.

٤- مراجعته بشأن بعض اجتهاداته ومواقفه:

أ- مراجعته بشأن نصحه ابن عوف أن يخرج عن ماله:

أمر رسول الله عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن ماله كله؛ فلما هم أن يفعل قال النبي: «اذهبوا إليه»؛ فأتى، فقال النبي: «**إن جبريل أتاني فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، ويبدأ بمن يعول؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه**»[2].

ووجه دلالته مثل ما سبق.

ب- مراجعته بشأن حُكمه في الظهار:

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص٢٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٩٣.

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه ظهار زوجها منها[1] "وكانت عائشة تغسل شق رأس رسول الله ﷺ فقال رسول الله: «**حَرُمْتِ عليه**»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي. ثم قالت: يا رسول الله طالت صحبتي، ونفضت له بطني. فقال رسول الله ﷺ: «**حَرُمْتِ عليه**»؛ فجعل إذا قال لها: «**حَرُمْتِ عليه**»، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي. فنزل الوحي، وقد قامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فأومأت إليها عائشة أن اسكتي، قالت: وكان رسول الله إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات، فلما قضي الوحي، قال: «**ادعي زوجك**»، فتلا عليه رسول الله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

ولم يستطع نولدكه أن يشكك في ارتباط هذه الآيات بما نقلناه من مناسبة نزولها؛ قال[3]:

---

(١) قال لها: (أنت علي كظهر أمي).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير رقم (٢٦١٠٨)، وراجع: البيهقي: السنن الكبرى ج٧ ص٣٨٤ رقم (١٥٠٣٣) ونحوه أيضًا ج١١ ص٢٦٦ رقم (١١٦٨٩)، ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١٠ ص١٠٧ رقم (٤٢٩٧)، وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، رجاله كلهم ثقات. وراجع: ابن سعد: الطبقات ق٢ ج٣ ص٩٥. وفي الباب أيضًا: قالت عائشة: (تبارك الله الذي وسع كل شيء؛ إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي إلى رسول الله ﷺ زوجها وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات). (البيهقي: السنن الكبرى ج٧ ص ٣٨٢ رقم (١٥٠٢٠)) قال البيهقي: أخرجه البخاري.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٢.

“Der wortlaut der ersten Verse 1 - 5 läßt deutlich erkennen. daß sie durch ein bestimmtes Ereignis veranlaßt sind. Und zwar beziehen sie alle Angaben einhellig auf Aus b. Assamit. der sich von einer seiner der sich von einer seiner Frauen. namens Haula oder Huwaila mit der heidnischen Formel ,Du bist mir wie der Rücken meiner Mutter, ”.

"نص الآيات [من ١ - ٥ من سورة ٥٨: (المجادلة)] يظهر بجلاء أن سببها حادث محدد. وهناك إجماع على أن تلك الآيات تشير إلى أوس بن الصامت الذي طلق امرأته، واسمها: خولة، أو خويلة بنت الصامت، مستخدمًا الصيغة الجاهلية: أنت علي كظهر أمي".

إننا نلاحظ في الروايات أن:

- النبي قال أكثر من مرة للمرأة السائلة: «**لقد حَرُمتِ عليه**».
- رسولَ الله لم يكن - قبل أن ينزل عليه الوحي بحكم الظهار - على دراية به. والدليل على ذلك أنه لو كان على دراية به لكان قد حكم به بدلًا من الحكم الذي صوبه الوحي.
- رسول الله وجد نفسه مرة أخرى أمام الوحي. ولو كان هذا الأخير صوتًا داخليًا للنبي - كما يزعم نولدكه - لاستقر الحكم الذي جاءت به الآيات عند الحكم الذي صدر من النبي بادئ الأمر؛ لكن ذلك لم يحصل؛ فدل ذلك على أن الوحي لم يكن صوتًا داخليًا للنبي.

ج- مراجعته في دعائه على بعض المشركين:

لقد سُمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا**» بعد ما يقول: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٢٨. وراجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٣٦٥ رقم (٤٠٦٩).

قال الطبري في تفسيرها: (ليس إليك يا محمد من أمر خَلْقِي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمْرُهم إلَيَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني، وخالف أمري، أو العذاب: إما في عاجل الدنيا بالقتل والنِقَمِ المُبيرَةِ، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي).

وفي هذا دليل جديد على أن الوحي ليس صوتًا داخليًّا للنبي كما يزعم نولدكه.

د- مراجعته في صلاته على زعيم المنافقين:

جاء في البخاري[1] أن عبد الله بن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي؛ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فأعطاه [النبي] قميصه وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه. فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال: تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: «**إنما خيرني الله أو أخبرني**»، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2]، فقال: «**سأزيده على سبعين**»[3]. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه، ثم أُنزل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[4].

وعند الترمذي زيادة: قال [أي ابن عمر]: فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله[5].

---

(١) في تفسير سورة التوبة رقم (٤٣٩٣)، (٤٣٩٤)، (٤٣٩٥).

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) وفهم رسول الله الآية على أن النهي عن الاستغفار لمن مات مشركًا دون من مات مظهرًا للإسلام لاحتمال أن يكون معتقده صحيحًا، وهذا يقتضي أن تكون بقية الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قد نزل متأخرًا مع النهي عن الصلاة على أحد من المنافقين، انظر بالتفصيل: فتح الباري ج٨ ص٣٣٩.

(٤) التوبة: ٨٤.

(٥) سنن الترمذي ج٥ ص٢٧٥ رقم (٣٠٩٧).

فرسول الله ﷺ أعطى بالفعل قميصه ليُكَفَّن فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وصلى عليه بالفعل.

وهذا هو صوت النبي الداخلي؛ لأنه عبر عنه فعلًا: (بإهداء القميص، والصلاة، والاستغفار)؛ وقولًا: (بكلامه مع عمر بن الخطاب، وعرضِ فهمه للعدد في الاستغفار على ظاهره). لكن نزل الوحي بخلاف ذلك كله. فدل على أنه ليس صوته الداخلي.

هـ- مراجعته في استغفاره لأبي طالب:

وهي ذات علاقة بما قبلها. فقد روى البخاري[1] أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: **«أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»**. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**. فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

فنحن واجدون هنا أن رسول الله تحركت مشاعره (صوته الداخلي حسب نظرية نولدكه) إزاء الرجل الذي وقف بجواره ودافع عنه بحكم القرابة؛ فكان يخشى عليه من عاقبة الموت على غير التوحيد؛ فعزم على أن يستغفر الله له؛ فنزل الوحي ينهاه عن الاستغفار لرجل مات مشركًا.

---

(١) تفسير سورة التوبة رقم (٤٣٩٨)، وتفسير سورة القصص حديث رقم (٤٤٩٤).

(٢) التوبة: ١١٣.

(٣) القصص: ٥٦.

فهذا يدل على وجود اتجاهين هنا: اتجاه (الذات المحمدية الموحى إليها) واتجاه (الذات المفارقة الموحية) مما ينقض نظرية نولدكه في أن الوحي المحمدي صوت داخلي.

لكن نولدكه يرى أن الآيات ١١٣-١١٦ من سورة التوبة[1] تعفي المسلمين من أن يطلبوا رحمة الله للمشركين حتى إن كانوا أقرب الناس لهم. لكنه يرفض ما جاء في الروايات الموثقة من أن (الآيات المذكورة متعلقة بموت أبي طالب قبل الهجرة). وكذلك يرفض ما في الروايات الأخرى من أن (الآيات متعلقة بزيارة النبي لقبر أمه آمنة في الأبواء). حيث تقول الروايات إن الله نهاه عن ذلك.

ويرى نولدكه أن ربط الآيات بأبي طالب (غير ممكن لأسباب تاريخية)، وأن ربطها باستغفار النبي لأمه (ليس في الآيات ما يشير إليه). ويخلص إلى أن كُلًّا من الروايتين ليس سوى قول تفسيري لا قيمة له. ويُرجّح أن تكون الآيات عامة غير متعلقة بسبب خاص؛ لأن هذا – من وجهة نظره – هو الذي يتفق مع الوضع السائد في الفترة المدنية. يقول[2]:

"V. 114 - 117, welche die Muslime von der Pflicht entbinden, für die Götzendiener um Verzeihung zu bitten, selbst wenn es ihre nächsten Verwandten sein. Die Tradition bezieht diesen Abschnitt entweder auf Abu Talib,s Tod, der noch vor der Higra erfolgt war, oder auf den Besuch Muhammeds am Grab seiner Mutter Amina in Alabwaa, wobei ihm Allah verboten haben soll, für sie zu beten. Die erste Deutung ist schon aus

(١) في مصحفنا ١١٣-١١٦ وفي طبعة فلوجل التي رجع إليها نولدكه ١١٤-١١٧، والآيات هي: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٥-٢٢٦.

chronologischen Gründen unmöglich, die zweite wäre zulässig, wenn der Abschnitt überhaubt einen besonderen Fall im Auge hätte. Da er aber nur einen algemeinheit in die Situation der medinischen Zeit vortrefflich paßt, so sind beide Angaben nichts anderes als haltlose exegetische Kombinationen"

لكني لا أوافقه على ما ذهب إليه للأسباب الآتية:

١- لقد ثبتت (علاقة الآيات باستغفار النبي لعمه أبي طالب) برواية البخاري لها، وهو صاحب منهج متشدد في درجة التثبت من المرويات. ولم تكن لدى البخاري أو غيره مشكلة تتعلق بتفسير الآيات ليخترع لها سببًا؛ بدليل أن هناك آيات كثيرة ليست مرتبطة بسبب نزول وبقيت كذلك دون أن تربط بسبب معين.

٢- لا وجه لاعتراض نولدكه بالأسباب التاريخية (حيث يقصد أن وفاة أبي طالب كانت بمكة في حين أن سورة التوبة مدنية؛ فكيف تشمل آيات تكون تعقيبًا على حدث حصل بمكة؟). لأنه من المعروف أن بعض السور المدنية ضمت آيات كانت قد نزلت بمكة. فلا يستبعد هنا حصول هذا.

٣- إن أسلوب الآيات لا يُفهم منه ما فهمه نولدكه من أنها (تُعفي المسلمين من واجب طلب الرحمة للمشركين)، بل يُفهم منه أنه (لا ينبغي أن يحصل منهم هذا). لنقرأها معا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

لقد فسرها الطبري بناء على أنّ: (أنْ) إذا جاءت مع (كان)، فكلها بتأويل (ينبغي). أي: ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا به أن يستغفروا للمشركين... من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان..لأن الله قد قضى ألَّا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم

أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله[1].

٤- هناك فرق بين أن (يعفيهم الله من واجب الاستغفار للمشركين) وأن (يخبرهم أنه ما كان ينبغي أن يستغفروا لهم) لأن المعنى الأخير يشي بأن الاستغفار قد حصل منهم والله نهاهم عنه.

٥- ثم إنه حتى إن كانت الآيات (متعلقة بالوضع السائد في العهد المدني) كما هو اختيار نولدكه؛ فهي على أية حال تتضمن موقف مراجعة وتعديل من الوحي لسلوك اتُّخِذ؛ وبخاصة أن النبي أيضًا معني بهذه المراجعة؛ فقد ذُكر فيها بصفته: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾؛ ولم يقتصر الآيات على ذكر المسلمين كما يفهم من نص نولدكه.

نخلص إذن إلى أن الآيات نص في مراجعة الله تعالى لنبيه على موقف معين كان لرسول الله فيه رأي، لكن الوحي راجعه فيه.

و- مراجعته بشأن إذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن تبوك:

لقد أذن رسول الله لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (هذا عتاب من الله – تعالى ذكره – عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له من المنافقين في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم). فالرسول أَذِنَ لكن الله عاتبه. ولا يمكن تفسير هذا إلا في الإطار الذي ذكرته من قبل، وهو: وجود اتجاهين: اتجاه (الذات المحمدية الموحى إليها) واتجاه (الذات المفارقة الموحية) مما ينقض نظرية نولدكه في أن الوحي المحمدي صوت داخلي.

(١) تفسير الطبري للآيات المذكورة من سورة التوبة.

(٢) التوبة: ٤٣.

ز- مراجعته بشأن أحد وجوه إرضائه لبعض أزواجه:

لقد رُوِيَ أن رسول الله حرَّم على نفسه نوعًا من العسل بسبب حيلة احتالتها زوجتاه: حفصة وعائشة حتى لا يذهب لزوجته زينب بنت جحش (حيث كان يشرب عندها هذا النوع من العسل).

فلقد تواصيتا أن تقول كل منهما له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلتَ مغافير! وَفَعَلَتَا؛ فقال: «**لا، بل شربتُ عسلًا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له**». فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]". وهنا "عاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبيّن له تحلة يمينه"[2].

إننا نلاحظ هنا أن:

- رسول الله أراد إرضاء حفصة وعائشة بأن حَرَّم هذا النوع من العسل على نفسه. (إرادة النبي وصوته الداخلي حسب تعبير نولدكه).
- النبي نفَّذَ ما أراد بالفعل.
- الوحي جاء؛ وقبل أن يلوم زوجات النبي؛ وجه العتاب إليه أولًا على تحريم ما أحله الله له ابتغاء مرضاتهن. ووعده بالمغفرة ودله على طريق التحلل من هذا بكفارة اليمين.

إن هذه المراجعة تتناقض تمامًا مع افتراض نولدكه أن الوحي هو صوت النبي الداخلي؛ إذ لو كان كذلك فَلِمَ جاء مخالفًا بل موجهًا له؟

ح- مراجعته في تحرجه من إظهار أمر الوحي إياه الزواجَ من مطلقة متبناه:

(١) التحريم: ١، ٢، وراجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٣٧٤ رقم (٥٢٦٧)، ج١١ ص٥٧٤ رقم (٦٦٩١)، ومسلم بشرح النووي ص٧٣-٧٧ رقم (١٤٧٤)، وسنن أبي داود ج٣ ص٣٣٤ رقم (٣٧١٤).

(٢) تفسير الطبري للآيتين الكريمتين.

والقصة باختصار أن رسول الله كان قبل أن ينزل عليه الوحي قد تبنى فتاهُ: زيدَ بن حارثة؛ فصار يدعى زيد ابن محمد. ولأنه في حكم الابن؛ خطب له رسول الله ابنة عمته زينب بنت جحش، التي تزوجته رغم عدم ميلها له إكرامًا لتدخل الرسول. لكن مع الوقت لم يحصل بينهما تآلف نظرًا للتفاوت الاجتماعي بينهما، ولعدم ميلها له. وكان زيد يشكوها لرسول الله فيأمره بتقوى الله والصبر عليها وعدم فراقها على الرغم من أن الوحي كان قد أخبره أنها ستصير زوجته.

والذي كان يحمله ﷺ على إخفاء ذلك، خشيةُ قولِ الناس: تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمرٍ لا أبلغ في الإبطال منه؛ وهو تزوج امرأة الذي يدْعى: ابنًا. ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم[1].

وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2].

فنلاحظ هنا أن رسول الله أخفى شيئًا؛ لكن الله أبداه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

إن الذي أبداه الله هو: تشريع زواج النبي من امرأة متبناه لإبطال عادة التبني.

إن هذه المراجعة من الله تعالى لرسوله تناقض دعوى نولدكه أن الوحي

(١) ابن حجر: فتح الباري ج٨ ص٥٢٤؛ وراجع بشأن القصة أيضًا: البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٥٢٣-٥٢٥ رقم (٤٧٨٨)، وج١٣ ص٤٠٣ رقم (٧٤٢٠).

(٢) الأحزاب: ٣٧، ٣٨.

ليس سوى صوت داخلي للنبي؛ وذلك لأنه لو كان كذلك لما جاء معارضًا رغبة الرسول المتمثلة في (أمره زيدًا بتقوى الله والصبر على زينب وعدم فراقها). ولا يكتفي الوحي بهذه المعارضة؛ بل يضيف إليها كشفَه الدافع وراء تصرف النبي وهو خوفه من قول الناس على هذا التشريع الجديد بأن يقولوا: تزوج امرأة متبناه. ولعلها المرة الوحيدة في القرآن التي يقول الله فيها لنبيه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

فهل بعد كل هذا يأتي نولدكه ليقول إن وحي محمد هو صوته الداخلي؟

رُوِي[1] عن عائشة وأنس رضي الله تعالى عنهما: (لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآيات).

وبعد؛

فإن مراجعة القرآن لرسول الله بشأن بعض مواقفه وآرائه، وبعض ما انطوت عليه نفسه، وبشأن أسرى بدر، وفي بعض اجتهاداته ومواقفه، وفي تصوره لبعض أولويات الدعوة، وما اندرج تحت ما ذكر؛ يتناقض مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًّا للنبي. ولأن هذه المراجعات ثابتة صحيحة فلا ندعها لافتراض نولدكه الواهي.

الوجه الثالث: رسول الله ينتظر كلمة الوحي:

إن الرسول - في كثير من المواقف - لم يكن يصير إلى الحكم أو الموقف الجديد مباشرة، بل كان ينتظر كلمة الوحي. وهذا يناقض كون الوحي صوته الداخلي؛ إذ لو كان الوحي مجرد صوته الداخلي ما احتاج للانتظار.

ولنأخذ المثلين الآتيين:

(١) مسند أحمد ج٦ ص٢٦٦ رقم (٢٦٣٣٨)، وغيره من كتب السنة، وراجع: تفسير ابن كثير والقرطبي للآية، وابن حجر: فتح الباري ج٨ ص٥٢٤ وج١٣ ص٤١١.

١- نزول بعض أحكام الميراث:

عن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد؛ قتل أبوهما يوم أحد شهيدًا؛ وإن عمهما أخذ مالهما فاستفاءه فلم يدع لهما مالًا؛ والله لا تُنكحان إلا ولهما مال. فقال رسول الله ﷺ: «**يقضي الله في ذلك**». فأنزل الله عليه بعض آيات الميراث[1]؛ فدعا عمهما فقال: «**أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعطِ أمهما الثمن، ولك ما بقي**»[2].

إن رسول الله هنا لم يكن لديه حكمٌ سابق بشأن المسألة المستفتَى فيها هنا؛ ولذا انتظر حتى يقضي الله في ذلك. ولما نزل الحكم نَفَّذَه رسول الله على النحو الذي جاء.

ونجد في مسند الإمام أحمد[3] أن كل دور النبي كان أنه: "ذهب إلى السوق، حيث يوجد ميراث سعد بن الربيع، الذي هو أول ميراث قسم في الإسلام، وقسمه بنفسه".

فلو كان الوحي صوت رسول الله الداخلي؛ فلماذا لم يحكم بمجرد طرح السؤال عليه؟

---

(١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

(٢) مسند أحمد ٣/ ٣٥٢ (١٤٨٤٠). وأخرجه أبو عيسى الترمذي ٤/ ٤١٤ (٢٠٩٢) وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو داود ٣/ ١٢٠-١٢١ رقم (٢٨٩١)؛ لكن ذكر راويه (بشر بن المفضل) أنهما ابنتا ثابت بن قيس؛ وخطأه أبو داود وقال: (هما ابنتا سعد بن الربيع. وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة). وأخرجه الحاكم: المستدرك ج٤ ص٣٧٠ رقم (٧٩٥٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح. وراجع: ابن سعد الطبقات ق٢ ج٣ ص٧٨.

(٣) ٣/ ٣٧٤ رقم (١٥٠٦٢).

٢- تجاوُز الله للنبي عن عقاب أمته على حديث النفس:

صح في كتب السنة(١) أنه لما نزل على رسول الله قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)؛ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة؛ وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها! قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فأنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٣).

وبالتأمل نلاحظ الآتي:

- لقد شعر المؤمنون بالحرج مما تشكله الآية الأولى مما حسبوه إثقالًا عليهم، حيث يحاسَبون بكل ما في أنفسهم، سواء أبْدَوْه أو أخفَوْه. وذهبوا إلى رسول الله معلنين له هذا.
- نهاهم رسول الله أن يكونوا مثل أهل الكتاب من قبلُ حين عصَوْا.

(١) راجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٠٥-٢٠٦ رقم (٤٥٤٥)، و(٤٥٤٦)، وشرح ابن حجر لهما، وصحيح مسلم ج١ ص١٤٤-١٤٦ رقم (١٢٥، ١٢٦). ومسند أحمد ج٢ ص٤١٢ رقم (٩٣٣٣).

(٢) البقرة: ٢٨٤.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

- أمرهم أن يرضَوْا بحكم الله تعالى ويتعلقوا بالأمل في الفوز بالغفران.
- هذا كل ما كان لدى النبي ﷺ ليقوله لهم.

لكن جاء الوحي بعد ذلك بما لم يقله الرسول، أو يَرِدْ في حديثه معهم، أو يخطر له ببال؛ حيث بين الوحي:

- أن الله لا يكلف إلا الوُسع.
- أنه لا يؤاخذ المؤمنين إلا بما اكتسبوا.
- أمر المؤمنين أن يدعوا الله أن يرفع عنهم الإصر، وألا يُحَمِّلهم فوق الطاقة، وأن يعفو عنهم.

فإذا كان الوحي صوت محمد الداخلي؛ فلماذا لم تأتِ الآية (حاسمةُ الجواب)، منذ البداية؛ ما دامت هي الأخرى صوتًا داخليًا للنبي؟

وإذا كان الوحي صوت محمد الداخلي؛ فلماذا لم يتعاطف النبي من البداية مع الذين شعروا بثقل المحاسبة المذكورة؛ ولماذا صرفهم أصلًا عن هذا الشعور؟

كما أن قول النبي: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم**»[1] إنما يأتي توضيحًا للمعنى الجديد الذي أضافته الآية ٢٨٥ البقرة، وهو أيضًا وحي بيقين؛ لا بالمعنى الذي يدعيه نولدكه من كونه صوتًا داخليًا؛ بل وحي حقيقي من الله. إذ لو كان صوتًا داخليًا للنبي؛ فلِمَ لم يقله في مواجهة المؤمنين الذين شعروا بثقل مضمون الآية ٢٨٤ البقرة؟

الوجه الرابع: استثناء القرآن حالة من أن يشملها تشريع سارٍ؛ لينزل لها تشريع جديد؛ إذ لو كان الوحي مجرد صوته ﷺ الداخلي لبقي لها نفس التشريع الساري.

وأعني هنا تشريع الوحي لحكم اللعان؛ فلقد كان الحكم الشرعي المستقر في الزنا أنه لا يُصار إلى إقامة الحد إلا باعتراف من الفاعل، أو بأربعة شهود عليه، تتفق شهادتهم

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص١٦١.

الواضحة على الرؤية التامة. فإذا اتُّهمت امرأة محصنة بالزنا، ولم يكن شهود أربعة؛ عرَّض من فعل هذا نفسَه لحد القذف طبقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، ولم يكن ثمة حكم يتعلق برؤية الزوج منفردًا زوجته تفعل هذه الجريمة.

لكن حدَث أن جاء هلال بن أمية من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فلم يهجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله فأخبره؛ فكره رسول الله ما جاء، واشتد به عليه. واجتمعت الأنصار فقالوا: الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته[2] في المسلمين. فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا[3]. فقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم أني لصادق. ووالله[4] إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه؛ إذ أنزل الله على رسول الله الوحي وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه؛ حتى فرغ من الوحي؛ فنزل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[5]؛ فسُرِّيَ عن رسول الله؛ فقال: **«أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا»**؛ فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربي. الحديث[6].

---

(١) النور: ٤، ٥.

(٢) إشارة للحكم الثابت من الآيتين: ٤، ٥ النور.

(٣) لاحظ معي الشعور الحقيقي لدى المسلمين المعاصرين للنبي أن الله هو الذي يأتي بالحل وليس النبي... فلم لا يأخذ البحث الاستشراقي هذا في الاعتبار؟

(٤) كلام ناقل الواقعة.

(٥) النور: ٦-١٠.

(٦) أوردناه مختصرًا من حديث عبد الله بن عباس في مسند الإمام أحمد ج١ ص٢٣٨ رقم (٢١٣١).

لنلاحظ الآتي:

- أن رسول الله لم يكن لديه حل لهذا الإشكال إلا أن ينفذ حكم الله السابق؛ (وهو إقامة حد القذف على هلال وإهدار شهادته).
- أن النبي لم يكن لديه في بادئ الأمر تصور عن حكم اللعان (بدليل أنه لم يَصِر إليه مباشرة بل كاد أن يطبق حد القذف).
- كاد رسول الله أن يطبق حد القذف؛ لولا أن نزل عليه الوحي بحكم اللعان الذي يعالج مسألة زنا الزوجة (التي لم يشاهدها في أثناء الجريمة إلا زوجها).
- لو كان صحيحًا ما ادعاه نولدكه من أن (الوحي الذي جاء النبيَّ لم يكن سوى صوته الداخلي أو أنه ﷺ عد شعوره الداخلي صوت الله)؛ لحصل توحد بين رأي النبي والوحي، ولنزل الوحي بتأييد تطبيق حكم القذف في حالة هلال، ولما جاء وحي بحكم جديد؛ لكن هذا لم يحدث ونزل الوحي بحكم اللعان.

وهذا يضعنا أمام موقف يصعب على نولدكه تجاوزه:

إن حكم القذف (الذي كان للنبي تصور عنه)؛ لم يأت به الوحي. أي أنه جاء خلافًا لاتجاه الصوت الداخلي. وحكم اللعان (الذي لم يكن لدى النبي أدنى تصور عنه)؛ نزل به الوحي. أي أنه جاء بشيء خلا منه ذهن النبي تمامًا. فما تفسير نولدكه لهذا؟

لا تستطيع (نظرية نولدكه بشأن الصوت الداخلي) أن تفسر هذا.

ولقد فهم نولدكه هذا كله، فهرب من المواجهة بحل، بَدَا له سهلًا، واستخدمه بلا دليل كثيرًا، وهو إنكار أي ربط بين الروايات الكثيرة المتعلقة بحالة الزنا تلك وبين نزول آيات اللعان المذكورة. يقول[1]:

"تفسيرات العلماء تلك لا تصمد أمام النقد؛ فعلى فرض أن حادثة زنا قد حدثت في عائلة عويمر أو هلال؛ فإن الربط بينها وبين النص القرآني الذي معنا (وهو الآيات من ٦-١٠) من سورة النور يعد اختلاقًا"

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٠.

“Vor der Kritik kann von dieser exegetischen Gelehrsamkeit nicht viel bestehen. Mag immerhin in der Familie des Uwaimer oder Hilal ein derartiger Fall von Unsucht vorgekommen sein. so ist doch die Verknüpfung desselben mit unserer Qoranstelle wahrscheinlich erfunden”.

هكذا بسهولة شديدة تعد كل الروايات في سبب نزول هذه الآيات اختلاقًا.. لماذا؟ إنها إرادة نولدكه..

روايات هو بنفسه ذكر[1] أنها في: البخاري ومسلم والموطأ والنسائي وأسد الغابة والترمذي وأسباب النزول للواحدي وكل التفاسير بلا استثناء.. لماذا يطيح بها هكذا بجرة قلم؟

لا يجيب العلامة الشهير!!

ثم.. لماذا لا تصمد تلك الروايات أمام النقد؟ وما ماهية هذا النقد؟ ومن الذي وجهه؟ لا جواب أيضًا..

المهم أن يثير الغبار حول الروايات. ولا اعتبار أو قيمة للمنهج العلمي أمام إرادة نولدكه.

الوجه الخامس: توجيه الخطاب للنبي في القرآن؛ بما يتناقض مع فرضية الصوت الداخلي:

١- لقد وُجه الخطاب للنبي في القرآن الكريم؛ سواء باستخدام فعل الأمر: (قل)؛ أو باستخدام (تاء أو كاف المخاطَب). وقد بلغ عدد الآيات التي خوطب فيها النبي بـ(قل) فقط ٣٣٢ آية؛ منها ١١٦ آية في القرآن المدني، والباقي في القرآن المكي[2]؛ هذا فضلًا عن الآيات التي خوطب فيها النبي باستخدام تاء أو كاف المخاطَب.

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٠ هوامش ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) راجع محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٥٧١.

فهل يمكن أن تكون هذه الآيات صوتًا داخليًّا للنبي؟ لنبحث الأمر:

إن الجوانب التي عالجتها الآيات التي توجه الخطاب المباشر للنبي كثيرة[1]؛ وأشير هنا إلى بعضها:

أ- بعض هذه الآيات يتناول مسائل العقيدة:

نبوة محمد وعمومية رسالته وكونه بشرًا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾[2]

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[3]،

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4]،

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[5].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[6].

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[7].

---

(١) أحسب أن هذا الموضوع يحتاج إلى معالجة مستقلة.

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) فصلت: ٦.

(٥) يونس: ٤٩.

(٦) ص: ٦٥.

(٧) ص: ٨٦، ٨٧.

توحيد الله، وتنزيهه، وإسلام الوجه له وحده، وعبادته، وقصر علم الغيب عليه، ودعاؤه:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[1]،

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2]،

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3]،

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾[4]،

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[5]،

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[6]،

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[7]،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

(١) المؤمنون: ٨٤-٨٩.
(٢) آل عمران: ٢٠.
(٣) النمل: ٦٥.
(٤) الجن: ٢٠.
(٥) الإسراء: ١١١.
(٦) المؤمنون: ١١٨.
(٧) الإسراء: ٨٠.

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

بعض مسائل اليوم الآخر:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[5]

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[6]

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[7].

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[8].

(١) الزمر: ٣٨-٤٠.
(٢) آل عمران: من الآية ١٥٤.
(٣) الأحقاف: ٤.
(٤) الجمعة: ٨.
(٥) يس: ٧٨، ٧٩.
(٦) الواقعة: ٤٩، ٥٠.
(٧) التغابن: ٧.
(٨) الإسراء: ٥٠، ٥١.

ب- بعض هذه الجوانب فيه أوامر للنبي، منها:

أمرُه بالاستقامة:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

أمرُه بقول معين في وقت معين:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[4]

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[5]

أمرُه أن يصحح موازين الناس وتصوراتهم:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[7].

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الإسراء: ٨١.

(٣) طه: ١١٤.

(٤) المؤمنون: ٢٩.

(٥) المؤمنون: ١١٨.

(٦) المائدة: ١٠٠.

(٧) الأعراف: ٣٢، ٣٣.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(1).

أمرُه أن يعلِمَهم بمبدأ المسؤولية الفردية وتحمل تبعة الاختيار:

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(2)

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾(3)

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(4)

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(5).

أمرُه أن يعلن المفاصلة العقدية مع المشركين:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾(6).

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(7).

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ

(1) النساء: من الآية ٧٧.
(2) سبأ: ٢٥.
(3) هود: ١٢١.
(4) الكهف: ٢٩.
(5) يونس: ١٠٨.
(6) الكافرون: الآيتان ١، ٢.
(7) الأنعام: ٥٦-٥٨.

أَيِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[1]،

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]،

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

وأمرُه أن يأمر المؤمنين بالغض من البصر:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[4]. والأمر ذاته للمؤمنات[5].

أمرُه أن يخبر بأصول ما حرم الله:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[6].

ج- توجيه الله نبيه إلى محاور الخطاب مع أهل الكتاب:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[7]،

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

---

(١) الأنعام: ١٩.
(٢) الأنعام: ١٤.
(٣) يونس: ١٠٤.
(٤) النور: ٣١.
(٥) النور: ٣٢.
(٦) الأعراف: ٣٣.
(٧) آل عمران: ٦١.

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3]،

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

د- كما أن بعضها يخبر النبي بالآتي:

أن الوحي هو الذي يقصُّ عليه قصص السابقين:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[5]،

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[6]،

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) الجمعة: ٦.
(٣) البقرة: ١٢٠.
(٤) البقرة: ١٤٥.
(٥) آل عمران: ٤٤.
(٦) يوسف: ١٠٢.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1]

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[2].

إننا نلاحظ أن الآيات الكريمة سالفة الذكر تأمر النبي ﷺ بالآتي:

- إعلان نبوته، وأنها عامة، وأنه مع ذلك بشر لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وأن وظيفته الإنذار، وأنه لا يسأل قومه أجرًا على تبليغ رسالة الله.
- وإعلان توحيد الله تعالى، وتنزيهه، وإسلام الوجه له وحده، وعبادته، وقصر علم الغيب عليه، ودعاؤه.
- وإعلان أن الأرض كلها له تعالى، وأنه تعالى رب السماوات وبيده ملكوت كل شيء، ولا أحد يعلم الغيب إلا هو.
- وإعلان بعض حقائق اليوم الآخر، وأن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادته بعد موته.
- وإعلان أن الخبيث لا يستوى مع الطيب؛ حتى إن كان الخبيث قويًّا أو كثيرًا.
- وإعلان أن الله لم يحرم زينة الدنيا التي أتاحها لعباده؛ بل حرم الفواحش والمعاصي والظلم والشرك. وإعلان أن الدنيا مهما طالت فمتاعها قليل بالنسبة للآخرة.
- وإعلان مبدأ المسؤولية الفردية وتحمل تبعة الاختيار.. إلخ.

٢- ونود هنا أن نقف على نحو خاص عند بعض الآيات التي خوطب فيها النبي من قبل الله:

أ- لقد أمر الله رسوله أن يعلن المفاصلة العقيدية مع المشركين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) القصص: ٤٤-٤٦.
(٢) هود: ١٠٠.

ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[1]. هذه المفاصلة يأمر الوحي بإعلانها.. فهل يتصور أن يكون مردها إلى صوت النبي الداخلي رغم الاستضعاف والاضطهاد؟

ب- كما أمر الله رسوله أن يعلن مباهلة وفد النصارى فقال - وذلك في العهد المدني -: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

وروى البخاري[3] بهذا الشأن: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. وبالفعل جمع رسول الله الحسن والحسين وفاطمة وتجهز لأن يدعو الله على الكاذب من الطائفتين[4]، وفي مرسل الشعبي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: **«لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا إلى الملاعنة»**[5].

وهنا نتساءل:

هل يمكن أن يقدم رسول الله على خطوة تحوي كل هذا التحدي إلا إذا كان مدفوعًا من الوحي؟

وما الذي يضطره - لو كان الأمر من عنده أو طوعَ أمره - أن يقتحم مختارًا

(١) الكافرون: ١، ٢.

(٢) آل عمران: ٥٩-٦١.

(٣) بشرح ابن حجر ج٨ ص٩٣ رقم (٤٣٨٠).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم ج٣ ص١٦٣ رقم (٤٧١٩).

(٥) ابن حجر: الفتح ج٨ ص٩٤.

بذاته غمار مخاطرة لم يجبره أحد على الدخول فيها؛ بل لم يقترحها أحد، يجد النبي نفسه محرجًا إن لم يستجب له؟

ولقد كان من الممكن لو لم تكن نتائج تلك المباهلة محققة لصالحه ﷺ أن تكون خطرًا على دعوته؟

ج- كما أمر الله رسوله أن يعلن أن ثباته على الحق ليس راجعًا إليه إنما هو فضل من الله: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1].

إن هذا الخطاب لا يمكن أن يكون صوتًا داخليًّا للنبي ﷺ لأن تميز الذات المخاطِبة المتعالية التي تتحدث بضمير الجمع في: (أَوْحَيْنَا) (عَلَيْنَا) (ثَبَّتْنَاكَ) (لَّأَذَقْنَاكَ) (عَلَيْنَا)، والتي تمتن على النبي بأنها هي التي تثبته، وتحذره إن افترى على الله.. هذا التميز واضح تمامًا في مقابل الذات المخاطَبة (ذات محمد ﷺ) الموحى إليها الممتن عليها بالتثبيت. ولا يمكن أن يكون محمد هو مصدر هذا الخطاب؛ لأنه غير معهود في كلام العربي أن يأتي على هذا النحو، وكذلك هو غير معهود في كلام رسول الله: الحديث النبوي.

٣- لكن ما موقف علم الإسلاميات الغربي إزاء دليلنا هذا؟

إن علم الإسلاميات الغربي وقف إزاء الآيات القرآنية التي خوطب فيها النبي مواقف متعددة؛ ففي الوقت الذي فسرها فيه المستشرق الألماني اليهودي جوستاف فايل (١٨٠٨-١٨٨٩) *Gustav Weil*[2] بأن النبي تلقاها عن شخص

(١) الإسراء: ٧٣-٧٥.

(٢) عند نجيب العقيقي (المستشرقون ج٢ ص٤٥٧) جورج فايل، والصواب ما أثبتناه، وهو من أصل يهودي نال - كما يقول رودي بارت - تربية تلمودية. راجع: رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٢١. وراجع أيضًا: =

كان يتلاعب به، (ويستدل على هذا بما روي من أن جبريل كان يشبه دحية)؛ فإن المستشرق البريطاني شبرنجر[1] *Sprenger Aloys* (١٨١٣-١٨٩٣) فسّرها بأن النبي تلقاها من شخص كان يعمل بنشاط من خلف ستار، أو في تآمر مع النبي. وكان هذا الشخص يملي على النبي الآيات التي وجه فيها خطاب له.

ويتناول نولدكه ادعاء فايل؛ فيقول[2]:

"Nun vermutet aber Weil, daß Muhammed einige Offenbarungen geradezu von einem Menschen erhalten habe, der sein Spiel mit ihm trieb. Er meint, die Verse, in denen Muhammed angeredet wird, ließen sich kaum anders erklären, wenigsten in der früheren Zeit. Dazu hält er die Angabe, daß Gabriel dem Dahya ähnlich gewesen sein soll".

"يدعي فايل[3] *Weil* أن محمدًا أقرب إلى أن يكون قد أخذ بعض الوحي من شخص كان يتلاعب به؛ حيث رأى فايل أن الآيات التي خوطب فيها محمد لا تحتمل تفسيرًا آخر

= *Theodor Nöldeke , G. Bergsträsser und Otto Pretzl: Geschichte des Qorāns Dritter Teil s. 299, 322.*

(١) ترأس المعاهد الإسلامية في الهند في الفترة من ١٨٥٠-١٨٥٧، وعين في ١٨٥٨ أستاذًا للغات الشرقية في برن بسويسرا، وظل يشغل هذا المنصب حتى العام ١٨٨١ الذي اعتزل فيه للتأليف. من أشهر كتبه:

- *Das Leben und Lehre des Muhammed , Berlin 1869*
- *Muhammed und der Qorān, eine psychologische Studie, Hamburg 1889.*

(حياة وتعاليم محمد) و(محمد والقرآن دراسة نفسية). وعندما عاد من الهند إلى ألمانيا عاد معه ألفا مجلد من بينها ١١٤٠ مخطوط عربي- كما يقول يوهان فيُك- أو ١١٠٠ فقط - كما يقول بارت- اشترتها مكتبة برلين. هو الذي اكتشف وجود الجزء الأول من طبقات ابن سعد بكاونبور، ثم وجد الباقي بدمشق راجع: محمد علي حشيشو في تعليقاته ضمن كتاب المستشرقون الألمان لصلاح الدين المنجد ص١٢٢، نجيب العقيقي: المستشرقون ج٢ ص٢٧٧-٢٧٨، رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ترجمة د. مصطفى ماهر ص٦٤. وراجع كذلك:

Johan Fück: Die arabischen Studien in Europa, s. 178.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٧.

(3) Das Leben Muhammeds, Stuttgart 1864 Anm. 598 und k.57ff., 2. Aufl. S.66 ff.

غير ذلك، على الأقل في الآونة الأولى. ويستند في هذا إلى معلومةٍ أن جبريل كان من شأنه أن يشابه دحية في الشكل".

ويرد نولدكه على هذا الزعم بأن هذا الرأي غير جدير بالقبول أبدًا؛ لأن معظم القرآن لم يكن آيات خوطب فيها النبي من الله. كما أن هذا النوع من الآيات استمر في النزول إلى قبيل الهجرة بوقت قصير؛ فهل ظل النبي غير منتبه لهذا الخداع كل هذه المدة؟ كما يضيف أننا إذا افترضنا وجود ذلك الشخص المصلح الذي كان يتلاعب بالنبي.. فلماذا لم يُظهر نفسه وينشر تعاليمه بدلًا من الاعتماد على محمد؟ ويضيف كذلك: إنه سواء رَأى فايل أن دور المصلح اقتصر على تأليف الآيات التي خوطب فيها النبي وحدها؛ أم أَلَّفَ الآيات الأخرى كذلك؛ فإن تفسيره غير مقبول.

والتفسير الوحيد المقبول لدى نولدكه هو أن هذه الآيات ناتجة عن الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد؛ واليقين الجازم لديه في أن رسالته إلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا؛ يقول نولدكه معلقًا على زعم فايل[1]:

"Aber diese Ansicht ist durchaus nicht zu billigen. Daß Muhammed von Gott angeredet wird. streitet durchaus nicht mit der ganzen Weise seiner prophetischen Rede. am wenigsten in der früheren Zeit. in der er oft genug Engel erblickt haben mag.

In den spätern Suren behielt er diese wie andere Formen schon aus Gewohnheit bei. Nun sind aber die meisten Stellen. durch die Weil seine Ansicht zu beweisen sucht. aus ziemlich spätern Suren.

Muhammed hätte also den Betrug bis kurz vor der Higra gar nicht gemerkt! Wie sollen wir uns überhaupt denken. daß ein Reformator - denn als solcher wäre doch der eigentliche Urheber jener Verse anzusehen - statt selbst aufzutreten. einen leicht zu betrügenden Menschen aufgesucht hätte. um ihn durch Täuschungen. die der Wahrheit ihren Wert nehmen würden. zur Verkündigung seiner Lehren zu bewegen?

Wenn Weil nun meint jene Verse ließen sich nicht mit der Wahrhaftigkeit vereinigen. von der Muhammed anfangs durchdrungen

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٧-٢٨.

gewesen sei so entsteht das Dilemma: entweder hat der unbekannte Verfasser nur jene Verse gemacht. die an und für sich bedeutungslos sind. oder auch andere. die. wenn sie von ihm sind. ebenso wahr erscheinen müssen. wie wenn sie von Muhammed selbst stammen; also entsteht bei einer solchen Auffassung derselbe Konflikt.

Ganz unpassend ist hier endlich die Herbeiziehung Dahya's. Denn dieser Mann. der durchaus keine hervorragende Rolle spielt. war nur zufällig zu der Ehre gekommen als dem Gabriel ähnlich angesehen zu werden; er war sogar noch längere Zeit nach der Higra ein Heide. der als Kaufmann umherwanderte. also früher in keiner engeren Beziehung zu Muhammed gestanden haben kann."

إن "هذا الرأي لا يُقبل بحال من الأحوال؛ فكون محمد قد خوطب من الله لا يُعارَض مطلقًا بأسلوب كلامه النبوي(١) في مجمله عل الأقل في الآونة الأولى، التي كان يرى فيها الملكَ بقدر كاف كلما أراد(٢). ولقد أبقى محمد(٣)، في السور الأخيرة، بحكم جريان العادة، على هذا الشكل(٤)، مثل غيره من الأشكال.

على أن معظم الآيات التي يحاول *Weil* أن يستدل بها هي من السور المتأخرة إلى حد ما؛ فهل لم ينتبه محمد لهذا الخداع حتى قبيل الهجرة بوقت قصير؟

وكيف يسوغ لنا بأي حال أن نفكر أن مصلحًا؛ مثل ذلك الذي يُتوسم فيه أن يكون هو المنتجَ الأصليَّ لتلك السور؛ بدلًا من أن يُظهر نفسه؛ يَتوجه بسهولة إلى إنسان مخادع فيضلله تضليلًا ينتقص من صدقية قِيَمِهِ من أجل أن يقوم [ذلك المخادع] بنشر تعاليم ذلك المصلح؟

---

(١) ليس في القرآن أسلوب كلام نبوي.[المؤلف]

(٢) ليست رؤية الملك راجعة لإرادة النبي؛ فقد أمر الله جبريل أن يقول للنبي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. [المؤلف]

(٣) ليس لمحمد دور في هذا. فنولدكه يتحدث هنا وفي خلفيته الفكرية الدور الذي لكتبة العهدين القديم والحديث في التأليف. [المؤلف]

(٤) الذي يخاطب فيه من قبل الله. [المؤلف]

لو كان *Weil* يرى أن تلك الآيات لا تتفق مع الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد[1] فإن مأزقًا سينشأ من هذا:

فإما أن يكون ذلك المؤلف المجهول قد صنع هذه الآيات وحدها؛ وهي بالنسبة له عديمة الأهمية؛ أو أن يكون قد صنع الأخرى أيضًا ثم بدت بحق كما لو أنها قد صدرت من محمد نفسه. وهكذا تبقى نفس الأزمة *Konflikt* في رأيٍ كهذا".

ثم يرد نولدكه على فايل في استدلاله برواية (أن جبريل كان ينزل في صورة دحية)؛ بالتشكيك في هذه الرواية؛ يقول[2]:

"وبشكل غير ملائم بالمرة؛ يأتي في النهاية إقحام *Weil* لـ (دحية) هنا، لأن هذا الرجل، الذي لم يلعب أي دور مميَّز مطلقًا، جاء تشريفه بشكل عارض عندما أشبه منظرُه جبريل[3]. فلقد كان حتى وقت طويل من الهجرة مشركًا، وكان تاجرًا متجولًا، ولذا لم يكن باستطاعته أن يقيم علاقة وطيدة مع محمد".

وأُضيفُ هنا إلى ما قاله نولدكه من ردود، بعضها جيد، أن الآيات التي خوطب بها النبي في القرآن لم تقتصر على بدايات المرحلة المكية كما زعم فايل، ولا حتى نهاياتها كما أضاف نولدكه؛ بل استمرت في المرحلة المدنية كذلك؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[5].

(١) لا يجوز أن نغتر هنا بحديث نولدكه عن صدق النبي محمد ﷺ في أن الله هو الذي خاطبه (في الآيات التي فيها توجيه خطاب له)؛ فنولدكه يراه مجرد شعور داخلي لدى النبي ليس له واقع خارجي. فالنبي لم يكن يخدعنا حين نسب هذه الآيات لله؛ لأنه شعر بحق أن الله خاطبه، لكن هذا الشعور ليس له ظل من الواقع. [المؤلف].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.

(٣) رَدَدْتُ على هذه الدعوى في الجزء الأول من هذه الدراسة. [المؤلف].

(٤) الأحزاب: ٢٨.

(٥) الأحزاب: ٥٩.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١).

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(٣).

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

كما عرض نولدكه لادعاء شبرنجر *Sprenger* أن النبي تلقاها من شخص، كان يعمل بنشاط من خلف ستار، أو في تآمر مع النبي؛ وكان هذا الشخص يملي على النبي الآيات التي وُجِّه فيها خطاب له؛ فقال(٥):

> *"Auch Sprenger (Leben II. 2 348 - 390) gibt sich viele Mühe. zu beweisen. daß "wenigstens noch eine Person hinter den Kulissen tätig war" (S. 366) oder im "Komplotte" mit ihm stand (S. 362). und ist am meisten geneigt. Bahira für diesen Mentor des Propheten und Verfasser der Suhuf zu halten; aber seine Argumente können nicht überzeugen".*

"لقد أتعب شبرنجر *Sprenger*(٦) نفسه كثيرًا ليدلل على أن شخصًا واحدًا على الأقل

(١) الفتح: ١٥، ١٦.
(٢) الحجرات: ١٤.
(٣) الجمعة: ١١.
(٤) البقرة: ٨٠.
(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.
(6) Das Leben und Lehre des Muhammed II . Berlin 1869 . s. 384-390. Vgl. Auch Sprenger = . Muhammed und der Qorān. eine psychologische Studie. Hamburg 1889. s. 58.

كان يعمل بنشاط من خلف ستار[1] أو في تآمر *komplott* معه[2]. وهو كثيرًا ما كان يميل إلى القول بأن بحيرى كان مرشدًا للنبي ومؤلفًا للصحف".

ورد نولدكه على زعم شبرنجر مستدلًّا بصفات النبي الشخصية فقال[3]:

"Überhaupt ist es unwahrscheinlich daß ein überlegener und selbstbewußter Geist wie Muhammed derartig in Abhängigkeit von einem Zeitgenossen geraten sei. Am wenigsten darf ein betrügerisches Einverständnis angenommen werden. So viel Fehler er auch besessen hat, sein Lebenund sein Werk haben die Aufrichtigkeit seiner Verkündigung zur unbedingten Voraussetzung (s. oben S. 6)".

إن "أدلته لا يمكن أن تُقنع. إنه لمن غير المحتمل أبدًا أن نفسًا متعالية عزيزةً أبيَّة مثلَ محمد؛ كانت في علاقةِ تبعيةٍ لأحدِ معاصريه، أو على الأقل أن نفترض أن ثمة اتفاقًا تضليليًا. فبرغم أنه كانت لديه أخطاء كثيرة[4]؛ إلا أن الإخلاص لدعوته كان هو المميز الأساسي لحياته وعمله".

ثم يحيل نولدكه إلى الصفحة السادسة من كتابه محل الدراسة وليس فيها متعلقًا بهذا إلا هذه العبارة؛ يقول[5]:

"Die Hauptsache bleibt doch, daß er bis zum letzten Atemzuge für seinen Gott und das Seelenheil seines Volkes, ja der ganzen Menschheit

---

= ولقد انتقد المستشرق الألماني رودي بارت ما كتبه شبرنجر عن سيرة النبي فقال: "كان من المتوقع أن يتمكن شبرنجر بما بين يديه من مصادر كثيرة كثرةً كبيرةً من كتابة سيرة لمحمد لا تدع مجالًا للنقد أو الأخذ؛ ولكن السيرة التي ألفها خيبت الظنون في أكثر من ناحية، ولم تراع شروط ومتطلبات التقرير العلمي؛ فقد ضلله اتجاهُه إلى النظر للإسلام باعتباره وليد روح عصره، وحملَه على التقليل من شأن شخصية النبي ومن أهمية جهوده التاريخية" رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٢٣.

(1) S. 366.

(2) S. 362.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.

(٤) سأعالج في دراسة لاحقة مسألة عصمة النبي ردًا على اتهامات نولدكه له بارتكاب أخطاء.

(٥) ق١ ص٦.

geeifer. und daß er die feste Geweißheit von seiner göttlichen Sendung nie verloren hat"

وترجمتها:

"إن الشيء الرئيسي الذي بقي عنده حتى آخر رمق هو أنه ظل يجاهد في سبيل ربه لإنقاذ أرواح شعبه؛ بل كل البشرية؛ وأنه كان على يقين جازم في رسالته الإلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا".

- إذن فإن نولدكه يرفض تفسير كل من فايل وشبرنجر للآيات القرآنية التي خوطب فيها النبي، ويرى أن تلك الآيات تتفق مع الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد ﷺ بأن الوحي يأتيه. وتتفق كذلك مع اليقين الجازم لديه في أن رسالته إلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا. أي أنه يعيدنا مرة أخرى إلى زعمه عن الصوت الداخلي الذي هو محور النقاش في هذا الجزء.

الوجه السادس: توقيت نزول حكم منع المشركين من المسجد الحرام:

لقد أرسل النبي ﷺ في السنة التاسعة، حين فرغ من تبوك، أبا بكر أميرًا على الحج، ولم يذهب هو؛ لأن المشركين كانوا ما زالوا يطوفون بالبيت عراة، وقال: «**لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك**». فخرج أبو بكر، ونزلت آيات من سورة التوبة بعد ذلك[1]، وفيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له: «**اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان..**»[3].

---

(١) معنى حديث أخرجه أبو عبيدة: الأموال ١٦٠، وانظر هامش ٥ للمحقق: محمد خليل هراس من نفس الصحيفة.

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص٤٠٤.

إن تأخر نزول المنع يناقض كون الوحي صوتًا داخليًا؛ إذ لو كان كذلك لكان النبي قد رتب كل التكليفات عندما أرسل أبا بكر.

الوجه السابع: الآيات التي تصدم الواقع الجاهلي:

إن وجود هذه الآيات الكريمة في القرآن دليل على مفارقة الوحي الفاعل لذات النبي المنفعلة، وأنه لا يمكن أن يكون صوتًا داخليًا. ولنأخذ مثلًا الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[(١)].

إن النبي كان يعلم من خلال علمه بواقع قومه، ومن خلال مواقفهم السلبية السابقة من قضايا مماثلة عالجها الوحي؛ مدى ما تحدثه العقائد والأخبار الجديدة التي يأتي بها الوحي من ردود أفعال عنيفة من جانب المشركين؛ فلو كان له أدنى اختيار أو تدخل في الموحى به لحرص على أن يكون متوافقًا أو على الأقل غير متصادم مع واقع قومه ومجتمعه، ولو لمدة وجيزة؛ وبخاصة أن ردود أفعالهم كمجتمع جاهلي وثني مقلد كانت شديدة قاسية على المستويين المادي والنفسي.

ولا ينبغي أن نقلل من شأن هذا الأخير بالنسبة لشخصية عظيمة الشعور، مرهفة الحس، عالية الوجدان، مثل شخصية محمد ﷺ، يفعل فيها ألم الاستهزاء والسخرية أكثر مما يفعله الألم الجسدي بغيره. وهذه العقائد التي بلغها النبي هي الحق الذي نزل به الوحي؛ يقول الرازي بشأن آيات المدثر المذكورة:

"فلما ذكره مع علمه بأنهم لا بد أن يستهزئوا به، علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو تبليغ الوحي، وأنه ما كان يبالي في ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين"[(٢)].

---

(١) المدثر: ٣١.

(٢) الرازي: التفسير الكبير المجلد١٥ ج٣٠ ص٨٥٠.

الوجه الثامن: النبي يحيل إلى الوحي لتفسير بعض قراراته المصيرية:

لقد وصف الله صلح الحديبية بأنه فتح مبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]؛ على الرغم من أن النبي حين أمضاه لم يكن لديه تفسير يَرُدّ به على عدم ارتياح عدد من المسلمين (بسبب بعض الملابسات المتعلقة بذلك الصلح وبعض شروطه التي ظنوها مجحفة بالمسلمين).

تتمثل هذه الشروط وتلك الملابسات - حسبما ورد في كتب السنة الصحيحة - في الآتي:

عندما أمر النبي أن يُكتب في أعلى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال سهيل بن عمرو (مفاوض الطرف المشرك): أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؛ ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فقال النبي ﷺ: **«اكتب: باسمك اللهم»**.

وعندما وصف النبي نفسه بالرسالة فقال: **«هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»**؛ قال سهيل بن عمرو: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: **«والله إني لرسول الله وإن كذبتموني؛ اكتب: محمد بن عبد الله»**.

وعندما طلب منهم النبي أن يسمحوا له بالطواف بالبيت رفض سهيل قائلًا: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضغطة؛ ولكن ذلك من العام المقبل؛ فكتب.

واشترط سهيل أنه لا يأتي إلى المسلمين من المشركين رجل مسلمًا إلا ردوه إلى المشركين؛ فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين؛ وقد جاء مسلمًا؟

وقبل أن يتم الانتهاء من الاتفاق دخل المسلمون في اختبار عملي؛ إذ إنه بينما هم كذلك دخل أبو جندل (وهو ابن سهيل بن عمرو مفاوض المشركين) يرسف في قيوده مسلمًا هاربًا من مكة؛ فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ. فقال النبي ﷺ: **«إنا لم نقضِ الكتاب بعدا»**. قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا!!

(١) الفتح: ١.

ورفض المفاوض المشرك (الذي هو في نفس الوقت والد المسلم المستغيث) إتمام الصلح. فقال المسلم المستغيث: أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذب عذابًا شديدًا في الله.

ولقد كان وقع ذلك شديدًا على نفوس كثير من المسلمين لدرجة أن عمر بن الخطاب أتى النبي فقال: ألستَ نبي الله حقًّا؟ قال: «بلى!». قال: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى!». قال: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذًا؟ فلم يكن لدى النبي إلا أن يقول: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». فقال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى؛ **فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**». قال عمر: لا. فقال النبي: «**فإنك آتيه ومطوف به**»[1].

ويبلغ من شدة الأمر على باقي أصحابه أيضًا أن النبي أمرهم أن يقوموا فيتحللوا من نية العمرة بالنحر والحلق أو التقصير؛ فما قام منهم أحد، إلى أن قام النبي بنفسه فنحر وحلق؛ فاستجابوا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[2].

وأقول هنا:

إن النبي - قبل نزول الوحي بسورة الفتح - لم يُقدم أي تفسير أو تحليل عقليين يبينان أنه قَبل بهذه الشروط انطلاقًا من خُطة أو "استراتيجية"، ولم يَظهر في تبريره للصلح ما يصفه بأنه فتح؛ ولم يشرح لأصحابه فوائده؛ بل كل الذي فعله هو أنه أحال إلى الوحي بقوله: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

لكن نزل الوحي إلى رسول الله ﷺ بسورة الفتح كلها، وفيها:

- وصف صلح الحديبية بأنه كان فتحًا مبينًا[3].

---

(١) قال عمر: (فعملت لذلك أعمالًا). أي: لِتُكفّر عن إلحاحه على النبي.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٣٢٩-٣٣٩ الحديثان رقما: (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وغيره من كتب السنة والسيرة.

(٣) الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، =

- امتن على المؤمنين بمنع حصول القتال بينهم وبين الكافرين يوم الحديبية (مع أن جُرم الكافرين كبير بصدهم المؤمنين عن المسجد الحرام). وبرر منعَ القتال بـ (وجود مؤمنين وسط الكافرين في مكة)؛ و(بما سبق في علمه تعالى أن معظم المشركين، الذين يصدون اليوم عن المسجد الحرام؛ سيؤمنون)[1].

- بَيَّن صدقَ رؤيا النبي؛ وأكد أنها ستتحقق، فيَدخُل المسلمون المسجد الحرام آمنين، لكن لأنه تعالى يعلم ما لا يعلمون؛ فقد جعل صلح الحديبية بين يدي هذا الدخول، وبين أن الله يفعل ذلك برسوله لأنه هو الذي أرسله بالهدى ودين الحق الذي سيظهر على كل دين[2].

- امتن على الرسول والمؤمنين بإنزال السكينة عليهم لينقادوا لحكم الرسول، ولا يتوقفوا أمام حمية المشركين الجاهلية؛ بل يتجاوزوها إلى تحقيق مراد الله من الصلح. وأثني على بيعتهم للنبي، وبشرهم برضا الله عنهم، ووعدهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة[3].

= ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(١) الآيتان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(٢) الآيتان: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

(٣) الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

- أثنى على بعض صفاتهم[١].
- بين حقيقة مواقف المنافقين والأعراب المتخلفين عن الخروج في العام السادس مع النبي بقصد العمرة[٢].

يبدو واضحًا الآن أمام كل ذي نظر صحيح مبرأ من الهوى والغرض، أن رسول الله ما كان في ذهنه شيء من كل تلك التبريرات ليقدمها للمستفسرين عن مغزى الحدث؛ إذ لو كان في ذهنه منها شيء (لحظةَ أنِ اختارَ وقرر، أو لحظة أن استفسر الناس عن دلالة اختياره) لَذَكَرَه، ولما اكتفى بقوله: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

صحيح أن قوله هذا يلخص الأمر ويرده لأصله، لكنه ﷺ كان أمام حالة التباس قوية بين أصحابه الذين بَدَوا غيرَ مستعدين للتنازل عن إتمام العمرة (التي طالما مَنَّوا أنفسهم بها)[٣]. فلو كان لديه ﷺ شيء وقتها (مما جاءت به سورة الفتح لاحقًا)؛ لقام - والحدث في قمته - وخطب الناس وبرر لهم ما فعل. لكن هذا لم يحصل. وفي هذا دليل على أن الوحي ليس صوتًا داخليًا للنبي على خلاف دعوى نولدكه.

---

(١) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢) ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٣) قال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (مسند أحمد ج٤ ص٣٢٣ رقم (١٨٩٣٠)): (وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا).

حديث نولدكه عن سورة الفتح:

لقد تحدث نولدكه عن تاريخ نزول سورة الفتح على وجه يُبعد بعض آياتها عن أن تَرد دليلًا في موضوعنا هذا:

١- إنه يخالف الروايات الصحيحة فيزعم أن ليس كل سورة الفتح نزل في طريق العودة من الحديبية، وقبل دخول النبي المدينة؛ بل الآيات التي ينطبق عليها هذا - حسب رأيه - هي: الآيات من ١-١٧ فقط. كما يزعم أن الأجزاء المتبقية من السورة نزلت بعد فتح خيبر عام ٧ هـ. ويُفسر أي تناول لأحداث الحديبية في الآيات ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٧ بأنه مجرد رجوع من محمد بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ ليُقنع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. يقول[١]:

"توضع سورة الفتح بعد صلح الحديبية، الذي كان في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة. لكن ما يزعم لكل السورة؛ إنما هو فقط للآيات من ١-١٧ حيث تقع بعيد إمضاء الصلح المذكور. ومن المحتمل بحق أيضًا أن تكون قبل عودة محمد إلى المدينة[٢]. وتُظهر لنا هذه الآيات، بشكل أكثر وضوحًا من تقارير المؤرخين، أن محمدًا كان في تلك الآونة فد نوى الاستيلاء على مكة، لكن المتحالفين معه من البدو - الذين تمكن بواسطة عدد أكبر منهم بعد سنتين من أن يحصل عليها دون قتال تقريبًا - خيبوا أمله؛ ومن ثم غير خطته في دخول المدينة المقدسة عنوة[٣]، وأبرم مع القرشيين اتفاقًا ضمن له - إلى جانب فوائد أخرى -

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٥-٢١٧ مع الهوامش.

(٢) ويقول في الهامش هنا "انظر الآية ١١ والآية ١٥: سيقول الذين بقوا في منازلهم (أي عندما تعود)". ونولدكه يشير بهذا إلى قوله تعالى في الآيتين المشار إليهما ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾. ويَفهم بحق من صيغة الاستقبال أن نزول الآيات لا بد أن يكون قبل العودة إلى المدينة.

(٣) هذا ادعاء لا دليل عليه، وليس له وجود في الروايات، كما اعترف نولدكه. فكل الروايات تُجمع أن رسول الله خرج لا يريد قتالًا، وأنه لما كان بذي الحُلَيْفَة قَلَّد الهدي، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وأنه قال يومها: **«والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**. وقال: **«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين»**. (مسند أحمد: مسند=

أن يؤدي الحج العام القادم دون عقبات.

وقد أظهرت النتائج في النهاية أن ذلك الصلح كان نصرًا حقيقيًّا ونجاحًا هائلًا لسياسته[1]. الآية ١٨ وما بعدها[2] [أي إلى نهاية السورة] تنتمي إلى الفترة التي تلت إخضاع يهود خيبر ومن في محيطهم، أي في بداية العام السابع الهجري، وهو الأمر الذي كان قد وعد به محمدٌ الثري[3] *Reichtümer* رفاقَه عند الرجوع من الحديبية[4]؛ ومن هنا فإنه ليس ثمة سبيل آخر لتفسير الآيات ١٩، ٢٠،

= الكوفيين، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم). كما أن سورة الفتح لا تُشعر به على الإطلاق (كما يتضح من مضمون السورة الذي ذكرته أعلاه). فمن أين جاء نولدكه بهذا الفهم؟ لم يقل لنا أي الآيات تدل على هذا، وما وجه الدلالة؟.

(١) ويقول في الهامش هنا "هكذا تسمح الآية الأولى أن نفسرها بحيث لا نحتاج أن نضعها بعد حرب خيبر (قارن أيضًا التفاسير)". وهو هنا يعترف أن صلح الحديبية كان فتحًا.

(٢) أي من الآية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(٣) متى كان رسول الله ثريًّا؟ إن الغنائم التي حصل عليها المسلمون من خيبر وغيرها كانت توزع بالطريقة التي لا يجهلها نولدكه بطبيعة الحال، وما كان رسول الله يُبقي من نصيبه شيئًا؛ فهو الذي كان يؤرقه قبيل وفاته أن في بيته بضعة دنانير لم يُتصدق بها. ألا يسأل نولدكه نفسه: إذا كان رسول الله ثريًّا حقًّا؛ هل انعكس هذا الثراء على حياته؟ ألا يخلف من له هذه الصفة الأموال الكثيرة بعد وفاته؟ فهل خلف الرسول دينارًا أو درهمًا؟ لا أظن مطلقًا أن نولدكه الذي نقب في أعماق المراجع الإسلامية ليستخرج نصوصه الكثيرة ومنها الضعيف الواهي؛ لم يقف على هذا من رسول الله!! فلماذا إذن وصفه بهذا بغير سند تاريخي؟

(٤) ويطلب نولدكه في الهامش هنا أن نراجع الآيتين اللتين تدلان على وعد محمد – كما يزعم – رفاقه عند الرجوع من الحديبية وهما: الآية ١٥: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والآية ٢٠: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. ولاحظ التناقض حين تحدث أعلاه عن أن الآيات من ١–١٧ فقط هي التي نزلت قبل خيبر، وأن ١٨ وما بعدها نزلت بعد خيبر؛ ثم يعود هنا – وقد نسي العالم المدقق ما ادعاه – ليقول إن الآية ٢٠ يَعِدُ فيها محمد رفاقه عند الرجوع من الحديبية الغنائمَ!!

٢٧[1]. فبعد أن أحرز (محمد) هذا الانتصار [فتح خيبر] أمكنه أن يرجع بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ لذا تحدث (محمد) كثيرًا عنه في هذا الجزء أيضًا وكانت الآية ٢٣ [2] أكثر صراحة، وسعى إلى إقناع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. وتخطئ إحدى الروايات في جعل الآية ٢٧ بعد الحج الذي حصل في العام السابع من الهجرة".

وأرد على هذا بالآتي:

أ- أما زعمه أنه لم ينزل من سورة الفتح إلا الآيات من ١-١٧؛ فهو من جانب لا تؤيده الرواية الصحيحة؛ ومن جانب آخر لا تنهض الشواهد التي طَرَحَهَا أن تثبته:

فالرواية الصحيحة تثبت خلاف ما ذكره؛ ففي البخاري[3] أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «**لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»؛ ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقال السيوطي[4]: (أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها).

وقال ابن كثير[5]: "نزلت هذه السورة الكريمة (الفتح) لما رجع رسول الله ﷺ

---

(١) وهي: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٥٨٢ رقم (٤٨٣٣).

(٤) لباب النقول في أسباب النزول ص٣٠٠، وراجع كذلك: مسند أحمد ج١ ص٣٩١ رقم (٣٧١٠)، وج٣ ص٤٨٥ رقم (١٦٠١٨)، وسنن البيهقي كتاب الجزية باب نزول سورة الفتح رقم: (١٨٥٩٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٨٥.

من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل. فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة؛ منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه".

أما شواهد نولدكه؛ فقد ادعى أن الآيات ١٩، ٢٠، ٢٧ لا تفسَّر إلا بافتراض أنها نزلت بعد خيبر.

والآيات التي يعنيها هي ١٩: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، و٢٠: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، و٢٧: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

فبشأن الآيتين ١٩، ٢٠ - اللتين يذكرهما نولدكه - وقبلهما الآية ١٨ فإنها تعلن جميعها رِضَاءَ الله عن المؤمنين المبايعين الذين علم ما في قلوبهم، فأثابهم الفتح القريب (هو صلح الحديبية والمغانم الكثيرة التي ستحصل من جراء فتح خيبر). وفي الآية ٢٠ وعدٌ - مرة أخرى - لهم بحصولهم على مغانم كثيرة، وأن الله عجل لهم الهدنة[1]: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، وكف بهدنته أيدي الناس عنهم: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، ووعدَهم بشكل مبطن بفتح خيبر: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾.

ونحن نلاحظ أنها كلها أمور تصلح أن يَعِدَ الله بها النبي والمؤمنين بعيد الحديبية

(١) قال بذلك ابن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن إسحاق، ورجحه القرطبي، وذلك خلافًا لرأي مجاهد وقتادة - الذي رجحه الطبري - أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ تعود إلى فتح خيبر. راجع تفاسير: الطبري والقرطبي وابن كثير. وقد تكون الإشارة هنا إلى كلمة: (مغانم) التي سبقت ليكون المعنى: وعدكم الله مغانم كثيرة فعجلها لكم. وعلى أية حال فإنه أيًا ما كان المقصود بالإشارة؛ فلا وجود لما يمنع كون الآية نزلت عند الرجوع من الحديبية.

وقبل فتح خيبر كما وردت بذلك الرواية، وبالتالي فلا يصح ادعاء نولدكه أن لا سبيل لتفسيرها إلا بكونها نزلت بعد خيبر وأنها مجرد استعادة لأحداث الحديبية.

وبشأن الآية ٢٧: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ فهي تؤكد صدق الرؤيا التي رآها رسول الله، وتَعِد المسلمين أنهم سيدخلون الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ في المستقبل بلا خوف ولا قتال؛ وأنه حتى يتحقق عنصر الأمن الذي وعد الله به؛ فقد جعل الفتح القريب (وهو الصلح) يسبق ذلك الدخول.

ولا أدري على أي أساس ادَّعى نولدكه أنه لا سبيل لتفسير هذه الآية سوى كونها نزلت بعد فتح خيبر؛ إذ إنها كما رأينا تحمل وعدًا مستقبليًّا[1]؛ وما دام كذلك فإمكانية تصور أنه نزل مرجع رسول الله من الحديبية تتساوى في الاحتمال مع تصور نزوله بعد خيبر؛ ويترجح الإمكان الأول بالرواية الصحيحة المتقدمة، فيجب أن يصار إليه.

وبشأن الآيات الثلاث معًا ودعوى نولدكه أنه لا سبيل لتفسيرها سوى كونها نزلت بعد فتح خيبر لأنها تَعِدُ المسلمين بغنائم كثيرة هي غنائم خيبر؛ فإن ذلك يأتي في إطار أن نولدكه وغيره من الباحثين الغربيين ينظرون إلى النبي كشخص مبتوت الصلة عن الله ووحيه، ومن ثم لا يَتصورون أن يأتي وعد غنائم خيبر[2] بهذا الوضوح والصراحة والتكرار (٣ مرات) قبل حصول المسلمين عليها بالفعل؛ وبالتالي زعم أنه لا سبيل لتفسير هذا الوعد إلا بكون الآيات نزلت بعد حصول المسلمين على الغنائم بالفعل!!

لكن نولدكه لا يدري - أو لعله يدري ويتجاهل - أنه بذلك تجاوز كل وجه للفهم

---

(١) تحقق في العام السابع في عمرة القضاء.

(٢) الذي تحقق فعلًا، ولقد قرر نولدكه (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش٤ ص٢١٦) أن غنائم خيبر كانت كثيرة جدًّا. ويحيل إلى مراجع ذكرها.

حسب اللغة العربية؛ حيث إن الآيتين ١٩، ٢٠ لا تحتملان إلا الاستقبال ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، وليس أخذوها، و﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾. فبالإضافة إلى صيغة المضارع في الآيتين التي لا يمكن لغةً أن تأتي للحديث عن الماضي؛ فإن في الثانية ذكرُ (الوعد) الذي لا يتأتى إلا للمستقبل ضرورة.

كما أن نولدكه قد سبق أن رجح احتمال كون الآيتين ١١، ١٥ قد نزلتا عند مرجع رسول الله من الحديبية وقبل خيبر، مستندًا إلى صيغة الاستقبال فيهما: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، و﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾؛ قائلًا: "هؤلاء الذين بقوا في منازلهم سيقولون (أي: عندما تَعودُ مرة أخرى)".

والسؤال الآن:

لماذا فقط الآيتان ١١، ١٥ هما اللتان يُفهمان على هذا الوجه مع أن صيغة الاستقبال في الآيات الثلاث المذكورات واضحة مثل وضوحها فيهما ويفهمها كل ملم باللغة العربية؟

ولماذا تكون صيغة الاستقبال في: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ في الآية ١١ مُرَجِّحَةً لدى نولدكه أنها نزلت عند الرجوع من الحديبية دون أن يكون ذلك للآيتين ١٩، ٢٠: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، و﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾؟

كما أن نولدكه اعتمد كذلك على وجود صيغة الاستقبال للقول بسبق آية للحدث الذي تعد به؛ وذلك عندما تعرض للآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ فقد رفض الرأي الذي قال إنه موجود في النسخة الفارسية من تاريخ الطبري؛ وفيه: أنها نزلت بعد عمرة القضاء أي في العام السابع؛ فقال[1]:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٧.

"من الخطأ أن تأتي رواية لتنظر إلى الآية ٢٧ على أنها [نزلت] بعد عمرة العام السابع الهجري". مستدلًا على رأيه بقوله[1]: إن جملة: لتدخلن إن شاء الله؛ تتجه للمستقبل، وهذا لا يعوزنا إلى دليل آخر".

ومرة أخرى نتساءل: لماذا تكون صيغة الاستقبال في آية دليلًا على (سبقها للحدث الذي تشير إليه) ولا يكون الشيء ذاته لآية أخرى فيها صيغة استقبال مشابهة؟ هل شيء سوى إرادة نولدكه؟

هذا بشأن الآيات الثلاث التي استشهد نولدكه بها؛ أما باقي آيات السورة فلا يوجد فيها (حسبما عرضْتها من قبل) ما يمنع أن يكون قد نزل عند رجوع النبي من الحديبية، وكل ما فيها يوضح أن الآيات تعالج أحداثًا في أثناء صلح الحديبية وقبل فتح خيبر.

ب- وأما ما زعمه نولدكه من أن الآيات ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٧ مجرد رجوع من محمد بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ ليُقنع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. فهو ترديد للدعوى الاستشراقية الدائمة أن محمدًا هو مصدر القرآن، وهي الدعوى التي ردها كثيرون من علماء المسلمين وبعض الغربيين. وإذا قُرِئت فصول دراستي هذه بتجرد؛ فإن هذه الدعوى سيظهر تهافتها لدى المخدوعين بها.

ولماذا يستبعد نولدكه أن يتم التعرض لنتائج الحديبية إلا بعد فتح خيبر؟ ما الذي يمنع من أن يحصل هذا قبله؟ ليس من جواب لدى نولدكه؟

كما أننا نعرف أسلوب القرآن في استعادة الأحداث، وهو يختلف عن أسلوب الآيات هنا؛ فالاستعادة واضحة؛ مثلًا، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش ص٢١٧.

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

ففي هذه الآيات نستطيع أن نتحدث عن منهج الاستعادة القرآني. لكن آيات سورة الفتح (التي يزعم نولدكه أن فيها رجوعًا بالأحداث لاستعادة نتائج الحديبية)؛ ليس في أسلوبها ما يشي بهذا.

ثم إن نولدكه في دعواه (أن الحديث في سورة الفتح عن الصلح تم بعد فتح خيبر) يتكئ بشكل خاص على الآية ٢٣: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، التي يقول عنها: إنها جاءت أكثر صراحة. وهو يفهم أن ﴿مِن قَبْلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، إشارة إلى صلح الحديبية؛ وهذا خطأ ليس بالهين من عالم كبير مثله؛ لأن الآية التي قبلها تبين أن (الكافرين سيولون الأدبار إن هم قاتلوا تلك الفئة المؤمنة الصادقة المتماسكة، التي بايعت النبي على ألَّا تفر)؛ ومن ثم أفادت الآية التي تليها أن (هذه هي سنة الله؛ أن ينصر الحق الذي استعد على هذا النحو). ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

---

(١) التوبة: ٢٥-٢٧.
(٢) التوبة: ٤٠.
(٣) الأنفال: ٢٦.

وقد ورد هذا التعبير في القرآن في أكثر من موضع؛ فقد جرت سنة الله أن لا حرج على الأنبياء فيما فرضه الله لهم: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾. وجرت سنة الله في المنافقين أن يُلعنوا ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾. فليست الإشارة في قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ إلى يوم الحديبية؛ بل هي تشير إلى سُنّة الله التي مضت في التاريخ كله من قبل. وأعجب: كيف فات نولدكه ذلك؟

وعلى أية حال؛ فإن هذا يبين كيف يستقي نولدكه أدلته، وكيف تتحكم النظرة الجزئية وتغيب النظرة الشاملة عن باحث غربي كبير؛ في حين يستمر زملاؤه في رمي الباحثين المسلمين بهذا العيب!!

ج- وعندما جاء نولدكه إلى الآيتين ١٨، ٢٧ فجعلهما بعد خيبر فإن ذلك يقتضي ألا يكون المقصود بالفتح صلح الحديبية وهذا يخالف سياق الآيتين والرواية الصحيحة؛ فبعد نزول الوحي بتسميته فتحًا؛ سماه رسول الله كذلك؛ ففي الحديث أن النبي سئل بعد نزول سورة الفتح وتلاوتها على الناس: أَوَفَتْحٌ هو؟ قال: «والذي نفس محمد بيده إنه لفتح»[١].

وجاءت تسميته كذلك على ألسنة الصحابة، فقد أخرج البخاري[٢] عن البراء رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية).

وورد مثله عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وأبي سفيان[٣]. كما ينقل ابن هشام[٤]عن الزهري قوله: (ما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قبله كان أعظم منه. إنما كان

(١) مسند أحمد ٣ ص٤٨٥ رقم (١٦٠١٨).
(٢) بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٤١ رقم (٤١٥٠).
(٣) راجع تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٥-١٨٦.
(٤) السيرة النبوية ج٣ ص٢٤٠. وراجع سنن البيهقي كتاب الجزية باب نزول سورة الفتح على رسول الله مرجعه من الحديبية (١٨٥٨٣)، (١٨٥٩٤).

القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا؛ فتفاوضوا في الحديث والمنازعة؛ فلم يُكَلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)، ثم يؤيد ابن هشام هذا فيقول[١]: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله؛ ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف).

وقال ابن كثير لتوجيه سبب تسميته فتحًا[٢]: (إنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان).

الوجه التاسع: وجود حالتين نفسيتين مختلفتين متزامنتين مما يعني بالضرورة انتماءهما لذاتين مختلفتين:

وأعني هنا (تعقيب رسول الله على إباحة الوحي له سؤال أهل الكتاب لرفع الشك عنه)؛ وذلك في قول الله تعالى للنبي: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٣].

فقد ثبت أن ابن عباس[٤] قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل. وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري ... وروي عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أشك ولا أسأل»**[٥].

---

(١) السيرة النبوية ج٣ ص٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٨٦.

(٣) يونس: ٩٤.

(٤) القاضي عياض: الشفا ج٢ ص٩٠، وراجع: الشيخ محمد عبده: المنار ج١١ ص٣٩٢ التفسير الكبير: الرازي مجلد ٨ ص٤٤٧.

(٥) ذكر القاضي عياض قول الرسول هذا في الشفا ج٢ ص٩٠، كما ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه ص٢٩١ رقم (٤٠٢٦)، وراجع الطبري في تفسير الآية ٩٤ يونس.

إننا نجد هنا رسول الله ينفي الشك والحاجة للسؤال عن نفسه. وهذا يُشَكِّل تمامًا شعوره الداخلي واطمئنانه النفسي لما أنزله الله إليه... ومَن يأتي شعوره الداخلي على هذا النحو؛ لا يُتصور أن يصدر منه السؤال الوارد في الآية الكريمة؛ إذ إن إباحة السؤال والتعقيب عليه ينتميان بالضرورة إلى حالتين نفسيتين مختلفتين، ولا يتصور اجتماعهما معًا في شخص واحد؛ بل لا بد من وجود ذاتين منفصلتين تمامًا: إحداهما متعالية ترفع الحرج عن رسول الله إن هو سأل من أجل إزالة الشك؛ والأخرى هي ذات الرسول تعلن عدم حاجتها للسؤال لانتفاء الشك أصلًا؛ وعليه فلا يمكن أن تكون هذه الحالة صوتًا داخليًا للنبي.

وبعد؛

فقد أظهرت هذه الوجوه التسعة أن ما نسميه واقع علاقة النبي بالقرآن يتناقض تمامًا مع افتراض نولدكه أن وحي الله إلى محمد لم يكن سوى صوت محمد الداخلي؛ وبالتالي فإن هذا الوحي لا يمت لذات محمد ﷺ بصلة وليس نابعًا منها، ولا صوتًا داخليًا فيها.



المبحث الثاني
تناقض قوله بالصوت الداخلي مع حالة الوحي ذاتها

نثبت هنا أن وجوهَ تناقضٍ موجودة بين (ما ثبت عن حالة الوحي إلى النبي من أخبار) وبين (افتراض نولدكه الواهي أن الوحيَ إليه ﷺ لم يكن سوى صوتِه الداخلي).

إننا إن نظرنا للثابت بالروايات الصحيحة مما يمكن أن نسميه: (حالة الوحي إلى محمد ﷺ) لوجدناها تتمثل في أمور أهمها:

- شمول الوحي إلى النبي غيرَ الإنذار.
- تأخر الوحي عنه ﷺ على الرغم من توافر شعور داخلي لديه متعجل له في بعض الأحيان.
- ليس له أوقات خاصة أو استعدادات خاصة.
- له بعد موضوعي.

وهي أمور تتناقض مع افتراض نولدكه أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي؛ وهذا إجمال يحتاج للتفصيل:

الوجه الأول: شمول الوحي غيرَ الإنذار:

إذا كان نولدكه يفسر وحي الله إلى محمد ﷺ بزعمه أن النبي دخل في خلوة طويلة؛ تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (يقصد أهل الكتاب)؛ فنشأ صوت داخلي ظنه وحيًا من الله. وأن هذا الصوت أعطاه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ فما قوله في الوحي الذي لا يتعلق بإنذار أو تبليغ؟

وأمثلته كثيرة، منها:

(جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة وقال: إن الله يقرئ خديجة السلام. فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله)[1]. كما ثبت أن جبريل، بالإضافة لهذا، بشر خديجة على لسان النبي ببيت في الجنة[2].

إننا نجد أنه في الوقت الذي جعل فيه نولدكه الصوت الداخلي متعلقًا فقط بإنذار محمد قومه؛ وجدنا الوحي يشمل الإنذار وغيره.

الوجه الثاني: تأخر الوحي عنه ﷺ على الرغم من الحاجة الماسة إليه، وتوافر شعور داخلي متعجل له[3].

يظهر هذا في الحالتين الآتيتين:

١- الحالة التي تأخر الوحي عنه ﷺ فيها رغم الحاجة الماسة إليه:

لقد حدث أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ بعض الأسئلة؛ ومنها سؤال عن أهل الكهف، فوعد رسول الله - كما يقول الطبري[4] - (أن يجيبهم عنهن غدَ يومِهم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة، حتى حزنه إبطاؤه، ثم أنزل الله عليه الجواب عنهن، وعرف نبيه سبب احتباس الوحي عنه، وعلَّمه ما الذي ينبغي أن يستعمل في عِدَاته، وخَبَّرَه عما يحدث من الأمور التي لم يأته من الله بها تنزيل).

وجاء في البخاري[5] أن رسول الله قال: «**يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**». فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا

---

(١) النسائي: السنن الكبرى ج٥ ص٩٤ رقم (٨٣٥٩)، وج٦ ص١٠١ رقم (١٠٢٠٦).

(٢) مسلم بشرح النووي مجلد٥ ج١٥ ص١٩٩ رقم (٢٤٣٢).

(٣) على صلة بهذا أيضًا أن الوحي لم يكن له وقت معين ولا حال معين.

(٤) في تفسير الآية ٢٤ الكهف.

(٥) بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٢٩ رقم (٤٧٣١).

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1]. وعند ابن إسحاق[2] عن ابن عباس أن قريشًا لما سألوا عن أصحاب الكهف فمكث النبي ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا. فلما نزل جبريل قال له: «أبطأت!». فأوحى الله إلى جبريل قل له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[3].

ولعل هذا هو وجه قول الله لنبيه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[4].

إن الذين يزعمون أن وحي الله لمحمد ﷺ كان ذاتيًّا أو صوتًا داخليًّا لا يستطيعون تفسير ذلك التوقف إلا بالاعتراف الصريح بكونه خارجًا عن النبي؛ لأنه لو كان ذاتيًّا؛ فلماذا يتوقف على الرغم من وجود الحاجة الماسة إليه؟

٢- **الحالة التي تأخر الوحي فيها على الرغم من توافر شعور متعجل له هي: حادثة الإفك:**

إن المتأمل لتلك الحادثة يخرج بانطباع مؤكد؛ مؤداه: المفارقة التامة بين ذات النبي والوحي؛ وهذا يتضح من الآتي:

أ- إن القصة كما ترويها عائشة[5] أن رسول الله اصطحبها في غزوة غزاها، وعند العودة انقطع عقدها فالتمسَتْه، وأقبل الرهط الذين كانوا يقودون رحلها، فاحتملوا هودجها - وهم يحسبون أنها فيه - وساروا. ولما وجدت عقدها جاءت منازلهم فلم تجد أحدًا، فعادت إلى منزلها الذي كانت به، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها. فبينا هي جالسة في منزلها غلبها

(١) مريم: ٦٤.
(٢) ورد ذلك في ابن حجر: الفتح ج٨ ص٤٢٩ رقم (٤٧٣١)، وراجع السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨١.
(٣) مريم: ٦٤.
(٤) الكهف: ٢٣، ٢٤.
(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٥٢ رقم (٤٧٥٠).

النوم فنامت. وجاء في الصباح صفوان بن المعطل السلمي الذي كان من وراء الجيش، فأصبح عند منزلها فعرفها فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

تقول عائشة: (فخمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه). وركبتْ عائشة على راحلته، وانطلق يقودها، حتى أتيا الجيش بعد وقت قصير في الظهيرة. تقول عائشة: (فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول. فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا - والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك - لا أشعر بشيء من ذلك. ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تِيكُم؟». ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني).

ولم تكن عائشة تشعر بما يقال عنها حتى أخبرتها أم مسطح بن أثاثة (خالة أبي بكر) بقول أهل الإفك، ومنهم: ابنها مسطح، فازداد مرضها. تقول: (فلما رجعتُ إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ؛ تعني: سَلَّم؛ ثم قال: «كيف تيكم؟». فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما، فأذن لي. فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك! فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها، فقلت: سبحان الله!! ولقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي. فدعا رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - حين استلبث الوحي - يستأمرهما في فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله! أهلُك، وما نعلم إلا خيرًا. وأما علي ابن أبي طالب فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها

(١) البقرة: من الآية ١٥٦.

كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله بريرة، فقال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟**». قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول؛ فقال وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد: كذبت لعمرُ الله لا تقتلهُ، ولا تقدر على قتله! فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرُ الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكتَ. فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي - وقد بكيتُ ليلتين ويومًا، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع - يظنان أن البكاء فالق كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي - وأنا أبكي - فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي.

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله؛ فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها. وقد لبثَ شهرًا لا يوحى إليه في شأني. قالت: فتشهد رسول الله حين جلس، ثم قال: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله**

تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنّي!! والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي. وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى؛ ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام رسول الله ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه. فلما سُرِّيَ عن رسول الله سري عنه وهو يضحك؛ فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة! أما الله عز وجل فقد برأك**». فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] العشر الآيات كلها... قالت عائشة: وكان رسول الله يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: «**يا زينب، ماذا علمت أو رأيتِ؟**». فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة:

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) النور: ١١.

وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله، فعصمها الله بالورع؛ وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. ثم أمر رسول الله بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدهم)[1].

ب- نلاحظ هنا وجود الضرورة الملحة والحاجة الماسة لنزول الوحي سريعًا؛ فهناك ضرر بالغ لحق بعائشة زوج النبي. وهناك مكر سيئ لمروجي الإفك، إذ كان قصدهم طعن مقام النبوة، وليس فقط التهجم على عائشة. وثمة حالة من القلق والترقب والاحتقان كان يعيشها المجتمع المسلم بسبب هذا الحادث؛ وعلى الرغم من ذلك يتأخر نزول الوحي في هذا الشأن شهرًا: (وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني).

فلو كان النبي مصدرًا للوحي، أو لو كان الوحي هو صوت النبي الداخلي؛ فلماذا تأخر حسمُ الوحي لهذه القضية شهرًا كاملًا؟

إن تأخر نزول الوحي طيلة شهر كامل على الرغم من حاجة النبي وحاجة المجتمع الشديدة لنزوله؛ لهو دليل على تميز ظاهرة الوحي عن ذات النبي وإرادته؛ فالوحي من عند الله ينزله الله في الوقت الذي يريد.

ج- كما نلاحظ كذلك عدم تكوين النبي - بشأن براءة عائشة - (رؤية متكاملة واضحة بدليلها) قبل نزول الوحي عليه. قال العلامة ابن حجر[2]: (وفيه أن النبي كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي؛ لأنه لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي)، ويؤدي هذا في الشأن الذي معنا، إلى اليقين أن ذات النبي لم يكن لها أدنى علاقة من قريب أو بعيد بوحي براءة عائشة، ونصل لهذا اليقين من (نظرنا للجانبين): جانب النبي، وجانب عائشة وأبويها.

(١) من رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤.

(٢) الفتح ج٨ ص٤٨٠.

أما جانب النبي؛ فإن الأمر يتضح لنا من خلال الجدول(أ)؛ حيث يتضح الفارق بين موقِفَي النبي ﷺ (قبل وحي تبرئة عائشة) و(بعده).

لقد كان النبي قبل ذلك الوحي (على الرغم من ثقته في عائشة هي وصاحبه: دينًا وخلقًا)؛ قد هبط بمستوى الود معها إلى حدوده الدنيا، واستشار في فراقها، ولم يكن لديه دليل على براءتها سوى ثقته في دينها، وكاد أن يحسم الأمر معها؛ بأن بين لها أنها بين أمرين: إما أن يبرئها الله إن كانت بريئة، أو تتوب وتستغفر إن كانت ألمت بذنب[١].

وثقة رسول الله، التي أعلنها قبل وحي براءتها على المنبر، لم يُعلنها قرآنًا، بل كلامًا عاديًا.

أما بعد الوحي فقد تلاشى تمامًا احتمال إثمها، وثبتت بيقين براءتها، وضحكَ رسول الله لها، وبشرها، وأعلن على المسلمين ما نزل بشأنها من القرآن[٢] الذي نزل للتو، مسبوقًا بالمظاهر التي كانت تعتري رسول الله عند الوحي.

ونصل بالنظر لهذا الجانب إلى أن ذات النبي كانت بمنأى عن أن يكون لها أي دور في آيات البراءة سوى تلقيها وحيًا من الله؛ ولو ادعى نولدكه أن الوحي الذي نزل بهذا الشأن كانت له علاقة بذات النبي؛ أو أنه كان صوته الداخلي؛ لكان قد أسقط كافة الفوارق التي أظهرتها المقارنة المذكورة؛ وهو الأمر الذي لا يتفق وقواعد المنهج العلمي.

---

(١) ولا يلزم هنا حد؛ لأنه لا يتأتى إلا بشهود أربعة أو بإقرار، وليس ثمة شيء منهما.

(٢) الآيات من ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الجدول (أ) مقارنة بين محمد ﷺ الزوج النبي قبل وحي تبرئة عائشة وبعده

محمد ﷺ الزوج النبي قبل وحي تبرئة عائشة	محمد ﷺ الزوج النبي بعده
معاملته لها: (لا أعرف من الرسول اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟»). يستشير في فراقها: فدعا الرسول عليًا وأسامة -حين استلبث الوحي- يستأمرهما في فراق أهله. إعلانه ثقته في زوجته وصاحبه: فقال وهو على المنبر: **«يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل (المنافق ابن سلول) قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»**. خياران يطرحهما على عائشة، أحدهما يحتمل أنها ألمت بذنب: **«أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»**.	فجأة الوحي ومظاهره: (فوالله ما رام رسول الله ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ). تلاشي احتمال إثمها، ويقينية براءتها، وتغير معاملته لها وتبشيرها: فلما سري عن رسول الله سري عنه وهو يضحك؛ فكانت أول كلمة تكلم بها: **«يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك»**. محتوى وحي التبرئة: ونزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ الآيات؛ وفيها: وعيد لمن تولى كبره، وتربية للمؤمنين أن يظنوا بأنفسهم خيرًا، وألا يقولوا بأفواههم ما ليس لهم به علم، وألا يستهينوا بأمر التجني بمثل هذه الدعاوى، وألا يتبعوا خطوات الشيطان. وفيها كذلك بيان أن الواجب في مثل تلك الحالات المجيء بأربعة شهداء، ومن لم يأت بهم فهو كاذب مفترٍ، عليه حد القذف.

وفي جانب عائشة وأبويها؛ فبالإضافة إلى قول عائشة في الرواية التي معنا - كما جاء في رواية ابن إسحاق -: (فأما أنا؛ فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي. وأما أبواي؛ فوالذي نفس عائشة بيده؛ ما سري عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما؛ فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس)[1] وقال أبو بكر: (فجعلت أنظر إلى رسول الله أخشى أن ينزل من السماء ما لا مرد له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبق - أبيض مثل النبق - فيطمعني ذلك فيها)[2].

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤.

(٢) في رواية ابن جريج كما ذكر ابن حجر: الفتح ج٨ ص٤٧٦.

فنلاحظ هنا أن عائشة فوضت أمرها تمامًا إلى الله تعالى، منتظرةً أن يوحي إلى نبيه ببراءتها منامًا؛ ولما نزلت آياتُ براءتها رفضت عائشة أن تستجيب لأمها في دعوتها إياها للقيام للرسول، وقالت: (لا أقوم إليه، لا أحمد إلا الله عز وجل).

ونصل بنظرنا لهذا الجانب إلى أن ظن عائشة تصديق رسول الله ما قيل عنها، وارتكانها إلى الله وحده لتبرئتها، وقصرها الشكر لله وحده بعد براءتها.. كل ذلك يؤكد إيمانها المطلق بأن آيات براءتها منفصلة تمامًا عن ذات النبي، وليست بأي حال نتاجًا لهذه الذات. وكان هذا كذلك شأن أبيها وأمها.

الوجه الثالث: لا أوقات ولا استعدادات خاصة لوحي الله إلى محمد ﷺ بخلاف ما يتوقع للصوت الداخلي المزعوم:

إن وحي الله إلى محمد ﷺ لم تكن له استعدادات خاصة يجريها محمد ﷺ على نفسه حتى يستجلب بها الوحي؛ فمجيئه إياه لم يكن مرتبطًا بزمان ولا مكان، (فالوحي ينزل على النبي في الليل الدامس والنهار الأضحيان، وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب، وحتى في الإسراء إلى المسجد الأقصى والعروج إلى السماوات العلا)[1].

إن الوحي ينزل عليه (في كل لحظة: إنه ليأوي إلى فراشه، فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسمًا؛ فقد أُوحيت له سورة الكوثر. وإنه ليكون وادعًا في بيته - وقد بقي من الليل ثلثه - فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا)[2].

ومن أجل أن يكون حاضرًا في وعي النبي عدم خضوع الوحي لخطته أو لإرادته؛ أمر الله جبريل أن يقول للنبي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[3].

(1) البرهان ج1 ص198. عن صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص36.

(2) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص36.

(3) مريم: 64.

ولقد أتاه الوحي وهو يأكل؛ فعن عائشة قالت: خرجت سودة لحاجتها ليلًا، بعدما ضرب عليهن الحجاب، قالت: وكانت امرأة تفرع النساء جسيمة، فوافقها عمر، فأبصرها، فناداها: يا سودة، إنك والله ما تخفين علينا إذا خرجت، فانظري كيف تخرجين؟ أو كيف تصنعين؟ فانكفأت، فرجعت إلى رسول الله ﷺ - وإنه ليتعشى - فأخبرته بما قال لها عمر - وإن في يده لعرقًا - فأوحي إليه ثم رفع عنه، وإن العرق لفي يده. فقال: «**لقد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن**»[1].

وجاءه وقد استعد للنوم فأمره بالخروج إلى المقابر للاستغفار للموتى؛ فقد ورد في الحديث عن السيدة عائشة[2] قالت: (لما كانت ليلتي التي كان النبي فيها عندي، انقلب، فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع؛ فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت؛ فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج ثم أجافه[3] رويدًا، فجعلتُ درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: «**ما لك يا عائش حشيا رابية!**». قالت: قلت: لا شيء! قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير!**». قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي. فأخبرته. قال: «**فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟**». قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟**». قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم. قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه**[4] **منك، فأجبته فأخفيته منك**[5]، **ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك؛ وظننتُ أن قد رقدت فكرهتُ أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي؛ فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع**

---

(١) مسند أحمد ج٦ ص ٥٦ رقم (٢٤٣٣٥)، والحديث في البخاري كذلك.

(٢) مسلم بشرح النووي المجلد٣ ج٧ ص٤٢ وما بعدها رقم (٩٧٤)، وقوله: «حشيا رابية». بمعنى: ما لك قد وقع عليك الحشأ؟ وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيته والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره. راجع النهاية في غريب الأثر ج١ ص٣٩٢.

(٣) أغلقه.

(٤) أي: أخفى النداء عنك.

(٥) أي: أخفيت الإجابة عنك.

فتستغفر لهم». قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون».

فنلاحظ هنا أن النبي جهز نفسه لينام، بأن وضع رداءه، وخلع نعليه، وبسط طرف ردائه على فراشه ثم اضطجع، لكن جبريل فاجأه، وفي هذا دلالة على أن مجيء جبريل لم تكن له إجراءات أو استعدادات خاصة يجريها النبي على ظاهره أو باطنه.

وجاءه وهو يسير؛ فهذا عبد الله بن مسعود يشهد؛ فيقول: لما أقبلنا من الحديبية.. فبينا نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه اشتد عليه؛ فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1].

الوجه الرابع: البعد الموضوعي للوحي يتناقض مع ذاتية الصوت الداخلي:

إن الناظر لوحي الله إلى محمد ﷺ يجد أنه ارتبط بعدة مظاهر حسية واضحة تخرج به عن كونه صوتًا داخليًّا ذاتيًّا كما ادعى نولدكه. كما يجد أن الآخرين عاينوا وحي النبي وشاركوه - على نحو ما - الشعورَ به.

وسأتناول هنا هاتين الملاحظتين بشيء من التفصيل:

الملاحظة الأولى: ارتباط وحيه ﷺ ببعض المظاهر الحسية:

يمكن الحديث هنا عن جانبين:

الجانب الأول: المظاهر الحسية المتعلقة بالنبي ذاته؛ ويدخل هنا:

أ- المظاهر الحسية التي صاحبت ظهور جبريل لأول مرة للنبي ﷺ؛ من قبيل: أخذِ الملك له، وضغطِه ضغطًا شديدًا حتى بلغَ من النبي الجهدُ، ورجفَ قلبُه، وشعرَ بالبرد الشديد، فطلب التدفئة من زوجته. ثم رؤيةِ النبي بعد ذلك جبريلَ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض قائلًا له: **«يا محمد، أنا**

(١) تفسير الطبري رقم (٢٤٣٤٣)، ورواه أحمد ١/ ٣٨٦ و٣٩١.

جبريل، وأنت رسول الله...» الحديث [1]. كما ثبت كذلك أن رسول الله رأى جبريل له ستمائة جناح[2].

وفي ابن هشام[3] نجد قول النبي: **«فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل... وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك...».**

وقد يرى بعض المشككين أن عدم معاينة خديجة ما يعاينه النبي ﷺ من أمور الوحي دليل على كون الوحي أمرًا ذاتيًّا خاصًّا به، ليس له موضوع خارجي؛ لكن ذلك غير صحيح؛ يقول مالك بن نبي[4]:

(قد يرى عصرنا المغرم بالعلوم في هذا الذي حدث دليلًا على ظاهرة ذاتية محضة؛ لأن الرؤية موضوع الظاهرة لم تحدث في حضور خديجة. لكن هذا الخروج على القاعدة ليس عسيرًا على الفهم من الناحية الحسية؛ فإن عمى الألوان مثلًا يقدم لنا حالة نموذجية لا يمكن أن تُرى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، وهناك أيضًا مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علميًّا أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون؛ فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة، كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربية).

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٩٨ – ٢٩٩.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣١٣ رقم (٣٢٣٢)، وراجع: مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٣ ص٣.

(٣) ج١ ص١٤٧.

(٤) الظاهرة القرآنية ١٥٠.

ب- مجموعة الأعراض التي ثبت أنها كانت تحصل لرسول الله عند تلقي الوحي. فلقد ذكرنا في الجزء الأول عند ردنا دعوى نولدكه: (كون وحي الله لمحمد ﷺ أثرًا لمرض نفسي) ثبوتَ أعراضٍ للوحي إلى رسول الله تحدث عنها هو نفسه، وشهد بها أصحابه الذين كانوا شهود عيان لنزول الوحي عليه طيلة ثلاث وعشرين سنة.

يقول أ. مالك بن نبي[1]: (لقد استطاع أصحابه أن يلاحظوا كلما نزل الوحي شحوبًا مفاجئًا يتبعه احتقان في وجه النبي، وهو نفسه يدرك ذلك).
كما أثبتنا هناك أن الوحي القرآني كله وبعض الوحي غير القرآني قد سبق بالشدة على النبي.

ونخلص بالنظر إلى هذا الجانب إلى أن المظاهر الحسية التي واكبت ظهور جبريل للنبي أول مرة لم تقتصر على زاوية إدراكية بعينها؛ بل اشترك في تحصيل وعي النبي بها (إلى جانب العلم الضروري الذي خلقه الله فيه) السمعُ والبصرُ والكلامُ، بل الجسد كله الذي ضُغط وخاف وشعر بالبرد. كما نلحظ فيها التكرار والإلحاح، ولم تكن مجرد مرة منعزلة يمكن نسبتها إلى وهم أو اختلاط. وهذا كله يبعد لحظة الوحي الأول عن إطار الذاتية أو الصوت الداخلي الذي لا يمكن أن تنشأ عنه تلك المظاهر. كما أننا نحصل على نفس النتيجة من استمرار ظهور أعراض الوحي على النبي طيلة فترة نزوله عليه.

الجانب الثاني: مظاهر الوحي الحسية المتعلقة بغير النبي؛ ويدخل هنا:

أ- تأثير الوحي على من يجاورون النبي؛ فقد أخبر عمر بن الخطاب بصفته شاهد عيان لظاهرة الوحي أن من يجلس بجوار النبي كان يُسمع عنده أو عند وجهه أثناء الوحي (دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل)[2].

---

(١) الظاهرة القرآنية ١٥٣

(٢) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٦ رقم (٣١٧٣)، ابن حجر: الفتح ج١ ص١٩ رقم (٢)، وقال عنه الحاكم (المستدرك ج١ ص٧١٧ رقم (١٩٦١)): إنه (صحيح الإسناد). وتناقض فيه الذهبي؛ فمرة وافق الحاكم على تصحيحه، ومرة تعقبه بتضعيف أحد الرواة؛ وهو يونس بن سليم. =

كما قال زيد بن ثابت (وله نفس الصفة المتقدمة لعمر): (إن رسول الله ﷺ أَملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ؛ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت؛ وكان أعمى؛ فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرَضَّ[1] فخذي، ثم سري عنه؛ فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾)[2].

ب- تأثيره على ناقة النبي؛ فقد روى هشام بن عروة عن عائشة قالت: (كان النبي إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها[3] فلم تستطع أن تتحرك). وتلت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[4].

وقال أبو أروى الدوسي: (رأيت الوحي ينزل على النبي وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه؛ من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان)[5].

وعن أسماء بنت يزيد قالت: (نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جميعًا، إن

= وحكم الشيخ الألباني عليه بالضعف، ورمى الحاكم حين صححه بالتساهل، وذلك في هامش ص٩٧ من فقه السيرة للشيخ الغزالي. وقال أبو عبد الرحمن النسائي (السنن الكبرى ج١ ص٤٥٠ رقم (١٤٣٩)): (هذا حديث منكر لا نعلم أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه. والله أعلم).

(١) تُشل لا تتحرك، وفي المعجم الوسيط (١/ ٣٦٣) الأَرَضُّ: القاعد لا يبرح، وأَرَضَّ: ثقل وأبطأ.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٥٩ رقم (٤٥٩٢)، والجامع الصحيح لسنن الترمذي ج٥ ص٢٤٢ رقم (٣٠٣٣) وغيرهما.

(٣) جران الناقة: باطن عنقها، النهاية في غريب الأثر ج١ ص٢٦٣.

(٤) المستدرك ٢/ ٥٤٩ رقم (٣٨٦٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح. وورد في مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٢٥٤ رقم (٧٥٦).

(٥) ابن سعد: الطبقات ق١ ج١ ص١٣١.

كادت من ثقلها لتكسر الناقة)[1].

وأورد البيهقي في الدلائل: (وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته، فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه)[2].

ونخلص بالنظر إلى هذا الجانب إلى أنه لو كان الوحي صوتًا داخليًا لانحصر الشعور به على النبي؛ ولما تعدى تأثيره لآخرين؛ لكن هذا التأثير تعدى ليصل إلى من يجاورون النبي، بل وناقة النبي أيضًا؛ ولم يوجد بعد - ولن يوجد أبدًا - ذلك الصوت الداخلي الذي يدور في خاطر شخص فيشعر به آخرون!!! فهل تعدى صوت النبي الداخلي (الذي لا يعدو كونه مشاعر النبي الخاصة)، هل تعدى منه إلى الحاضرين معه وإلى ناقته؟

إن الحق الذي لا ينبغي أن يُمارى فيه أن هذا الدويَّ الذي يسمعه الآخرون؛ والثقل الشديد على فخذ كاتب الوحي التي تَصادف وجودها تحت فخذ النبي؛ وكذلك على ناقته ﷺ التي صادف أنه يركبها لحظة الوحي... كل ذلك لا يمكن تفسيره إلا بافتراض كون ظاهرة الوحي ظاهرة مفارقة لذات النبي، ولا يمكن أبدًا أن يكون لها علاقة بما يدعيه نولدكه من صوت داخلي.

الملاحظة الثانية: معاينة شهود العيان لوحي النبي ﷺ:

إن أمامنا وقائع من سيرة النبي، وشهادات ممن عاينوا ونقلوا إلينا ما شاهدوه عبر طرق نقل صحيحة؛ كلها تؤكد أن الوحي إلى رسول الله كان حدثًا عامًّا مشهودًا، كما تؤكد أنه لا يمكن لظاهرة الوحي أن تكون شأنًا ذاتيًا؛ لأنه قد صحبها (دلائل حسية يشعر بها بعض من شاهدوها خلال حدوثها)[3]؛ ونشير هنا إلى الآتي:

أ- عن واقعة من العهد المكي يقول عبد الله بن عباس: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالسًا إذ مر به عثمان بن مظعون.. فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٤٥٨ رقم (٢٧٦٣٣).

(٢) ابن حجر: الفتح ج١ ص٢١.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٥١.

«**ألا تجلس؟!**». قال: بلى. فجلس رسول الله ﷺ مستقبِلَه؛ فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسول الله ﷺ فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرَّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغِض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له - وابن مظعون ينظر - فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، وشخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء - كما شخص أول مرة - فأتبعه بصره حتى توارى في السماء، فأقبل على عثمان بجلسته الأولى، فقال عثمان: يا محمد، فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة... قال: «**أوَفطنتَ لذاك؟**». قال عثمان: نعم. فقال رسول الله: «**أتاني رسول الله (جبريل) آنفًا وأنت جالس**». قلت: رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]. قال عثمان[2] فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمدًا[3].

ب- وفي واقعة مكية أخرى سأل حمزة بن عبد المطلب النبي ﷺ أن يريه جبريل في صورته، قال: «**إنك لا تستطيع أن تراه**». قال: بلى. قال: «**فاقعد مكانك**». قال: فنزل جبريل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت، فقال: «**ارفع طرفك فانظر**». فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر، فخرَّ مغشيًّا عليه[4].

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) وعثمان بن مظعون من قديمي الإسلام بعد ثلاث عشرة نفسًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وكان من أشد الناس اجتهادًا في العبادة، وكان حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال: لا أشرب شرابًا يذهب بعقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني. مات سنة اثنتين من الهجرة، وقبله النبي وهو ميت. راجع: تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، لابن حجر ج١ ص٢٨٣ رقم (٧٣٠)، والإكمال في ذكر من له رواية في مسند أحمد من الرجال ص٢٩٠.

(٣) مسند أحمد ج١ ص٣١٨ رقم (٢٩٢٢)، والأدب المفرد ص٣٠٧ رقم (٨٩٣)، المعجم الكبير للطبراني ج٩ ص٣٩ رقم (٨٣٢٢)، ابن سعد: الطبقات ق١ ج١ ص١١٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ق١ ج٣ ص٦.

ج- كما أن موضعًا بالمدينة اشتهر باسم: (مقاعد جبريل). كانت هذه (المقاعد) معلمًا بارزًا في المدينة بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ[1]؛ قال أنس بن مالك: (صلى رسول الله ﷺ صلاة الظهر يومًا ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التي كان يأتيه عليها جبريل)[2].

وكان جبريل - متشكلًا في صورة بشرية تُمَكِّن آحاد الناس من رؤيته - يأتي رسول الله أحيانًا وهو جالس على تلك المقاعد، وجاز لذلك أن يراه بعض المسلمين؛ فهذا حارثة بن النعمان يقول: (مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل عليه السلام جالس في المقاعد، فسلمت عليه ثم أجزت، فلما انصرفت ورجع النبي قال لي: **«هل رأيت الذي كان معي؟»**. قلت: نعم. قال: **«فإنه جبريل عليه السلام، وقد رد عليك السلام»**)[3].

ويقول أيضًا: (رأيت جبريل من الدهر مرتين؛ يوم الصورين حين خرج رسول الله إلى بني قريظة، حين مر بنا في صورة دحية بن خليفة الكلبي فأمرنا بلبس السلاح، ويوم موضِع الجنائز[4] حين رجعنا من حُنين؛ مررت وهو يكلم النبي؛ فلما أُسَلِّم، فقال جبريل: من هذا يا محمد؟ قال: **«حارثة بن النعمان»**. فقال (أي جبريل): أما إنه من المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم في الجنة، ولو سلَّم لرددنا عليه)[5].

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٧ رقم (١٥٠٨)، والمعجم الكبير للطبراني ج٣ ص٢٢٧ رقم (٣٢٢٤). البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص٢٥٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٣٩ رقم (١٢٤٣٥)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٤/ ٤٨١ رقم (٦٥٤٣)، وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والمنتخب من مسند عبد بن حميد ص٣٨٣ رقم (١٢٨٤)، وطبقات ابن سعد القسم الأول ج١ ص١١٧، ومسند أبي يعلى ٦/ ٧٢ رقم (٣٣٢٧)، وقال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٧، رقم (١٥٠٨)، المعجم الكبير ٣/ ٢٢٨ رقم (٣٢٢٦).

(٤) (موضع الجنائز) هو مكان كان قريبًا من بيته ومسجده ﷺ، كان يؤتى بالجنائز فيه للصلاة عليها؛ حتى لا يشقوا على رسول الله.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق٢ ص ٥٢.

د- ورأته السيدة أم سلمة؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وهي عنده، فجعل يحدث ثم، قام فقال النبي ﷺ لأم سلمة: **«من هذا؟»**. أو كما قال، قالت: هذا دحية. قالت أم سلمة: وايم الله ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة نبي الله بخبر جبريل)[1]. وعنها أيضًا قولها: (رأيت رسول الله يناجي رجلًا فلما دخل سألته، قال: **«بمن تشبهينه؟»** فقالت: بدحية بن خليفة. قال: **«ذاك جبريل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة»**)[2].

هـ- ورآه آخرون في صورة دحية؛ ففي سيرة ابن هشام[3] وجدت النص الآتي: (ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين - موضع قرب المدينة - قبل أن يصل إلى بنى قريظة، فقال: **«هل مر بكم أحد؟»**. قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحاله، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله: **«ذلك جبريل بُعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم»**).

ويضيف أنس بن مالك كشاهد عيان واصفًا موكب جبريل وقتئذ، فيقول: (كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله إلى بني قريظة)[4]

وثبت أيضًا أن عائشة روت[5] أنه بعد هزيمة المشركين في غزوة الخندق مر رسول الله على بني غنم وهم جيران المسجد، فقال لهم: **«من مر بكم؟»**. فقالوا: مر بنا دحية الكلبي. وكان يُشَبَّه وجهه بجبريل.

و- كما تشكل جبريل في صورة بشر، ورآه الصحابة أنفسهم ولم يشكوا أنه هو، وذلك كما جاء في حديث عمر؛ حيث طلع عليهم - وهم جلوس مع

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٣ رقم (٤٩٨٠).
(٢) ابن حجر: الفتح ج٩ ص٥-٦، وعزاه للبيهقي في الدلائل.
(٣) ج٢ ص١٧١-١٧٢، ط دار التراث العربي.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٠٧ رقم (٤١١٨).
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق٢ ص٣.

الرسول - رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يعرفه منهم أحد، وسأل النبي عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها؛ وكان كلما أجابه النبي قال له: صدقت. فعجب الصحابة لذلك؛ ولما انصرف، قال النبي: «**إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1].

ولقد كان سبب عجبهم:

أن الرجل لا تظهر عليه علامات كونه قادمًا إلى الرسول من سفر؛ وفي الوقت نفسه ليس معروفًا لهم. فهو إن كان قادمًا من سفر؛ كان من الواجب أن تظهر عليه آثار السفر المعهودة في الصحراء. لكن ظهر عليه عكسها؛ فهو شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر. وإن لم يكن قادمًا من سفر فهذا يعني بالضرورة أنهم يعرفونه؛ لكنهم لا يعرفونه.

كما أن السائل بغرض التعلم لا يُصدِّق على إجابات المعلم؛ لكن الرجل كان يقول للنبي: (صدقتَ) كلما أجاب النبي عن سؤال من أسئلته؛ فدل ذلك على أنه كان يعرف الإجابة.

ز- كما يشهد عبد الله بن عباس فيقول: (كنت مع أبي عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه، فكان كالمعرض عن أبي، فخرجنا من عنده، فقال لي أبي: أي بُني! ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت: يا أبت إنه كان عنده رجل يناجيه. قال: فرجعنا إلى النبي ﷺ فقال أبي: يا رسول الله، قلتُ لعبد الله: كذا وكذا فأخبرني أنه كان عندك رجل يناجيك، فهل كان عندك أحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وهل رأيته يا عبد الله؟**». قال: قلت: نعم. قال: «**فإن ذاك جبريل، وهو الذي شغلني عنك**»)[2].

ح- ومما يبين كذلك أن الوحي إلى رسول الله كان حدثًا عامًّا مشهودًا ما يرويه

(١) مسلم بشرح النووي مجلد١ ج١ ص١٥٠ وما بعدها، رقم (٨).

(٢) مسند أحمد ج١ ص٢٩٣ رقم (٢٦٧٩). والمعجم الكبير للطبراني ج١٢ ص١٨٥ رقم (١٢٨٧٦).

مجمع بن جارية الأنصاري؛ قال[1]: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[2].

ط- ولقد روى أبو هريرة أنه عندما ظن الأنصار أن النبي سيستقر بمكة بعد فتحها؛ نزل الوحي على النبي آمرًا بالاستمرار معهم في المدينة؛ يقول أبو هريرة: كان لا يخفى علينا إذا نزل الوحي، ليس أحد منا ينظر لرسول الله، بل يُطرق حتى ينقضي الوحي. فلما قضي الوحي قال رسول الله: «**يا معشر الأنصار، قلتم: إن الرجل قد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟**». قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. فقال: «**كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم**». فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا ضَنًّا بالله وبرسوله. قال: «**وإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم..**»[3].

ونخلص من هذه الملاحظة إلى أننا هنا إزاء وحيٍ تعدى شعورَ النبي الذاتي؛ فصار حدثًا عامًّا مشهودًا منذ المرحلة المكية إلى أن مات رسول الله ﷺ.

ثبت حصول ذلك - كما تقدم في الروايات الصحيحة - يوم الحديبية، وبُعيد فتح مكة. وشهد كلٌّ من عمر بن الخطاب وحارثة بن النعمان بتشكل جبريل في هيئة بشر. ورأى جبريلَ في صورة دحية جمعٌ كبير من شهود العيان الثقات العدول؛ منهم أم سلمة وأنس بن مالك وعائشة[4]. ورأى حمزةُ جبريلَ في صورته الحقيقية.

(١) ابن سعد الطبقات ق١ ج٢ ص٧٦.

(٢) الفتح: ١.

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١١ ص٧٣، وقال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وبلفظ مقارب في مسلم بشرح النووي مجلد٤ ج١٢ ص١٣٣ رقم (١٧٨٠).

(٤) راجع ذلك في الجزء الأول.

وشهد أبو هريرة بأن وحي رسول الله لم يكن يخفى عن المشاهدين له، وكانت ملاحظةُ عثمان بن مظعون لذلك في المرحلة المكية سببًا لدخوله في الإسلام. كما اشتهرت المقاعد التي كان جبريل أحيانًا يأتي عليها رسول الله في المدينة، وكانت معلمًا بارزًا فيها. ولا يتصف الصوت الداخلي بشيء مما ذكر؛ فكيف يأتي نولدكه أو غيره بعد كل هذا ليدعي أن وحي رسول الله لم يكن سوى شعور ذاتي أو صوت داخلي؟

ظهر إذن من كل ما ذكرته هنا أن حالة الوحي إلى محمد في ذاتها؛ بغض النظر عن أي اعتبار آخر؛ تقدم دليلًا - بعكس ما ادعاه نولدكه - على أنها لا تمت لذاته ﷺ بصلة؛ فليست نابعة منها؛ وليست صوتًا داخليًا فيها.

كما نصل من خلال هذين المبحثين إلى نتيجة كلية، هي أن طرح الصوت الداخلي كتفسير لوحي الله إلى نبيه محمد لا يفسره؛ بل يزيده غموضًا.



المبحث الثالث
تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المزعوم

بقيت جزئية متعلقة ببحثنا هنا؛ هي الآثار التي يدعي نولدكه أنها لحقت بالنبي والإسلام، وترتبت على ما يدعيه نولدكه من عد النبي صوته الداخلي وحي الله؛ فقد ادعى نولدكه أنَّ (ظنَّ النبي أن صوته الداخلي هو الوحي) ترتب عليه أن أصبح (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام. وإنْ نظر محمد - كعادة الأنبياء الإسرائيليين - إلى كل السور الواعية الهادئة من جانب، والحماسية الهائجة من جانب آخر؛ على أنهما معًا دون تفريق - رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ، وهذا ليس خداعًا منه؛ بل بسبب الإيمان الساذج. وإن عد محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا. وإن سكب هذا الصوت في شعور محمد ﷺ الإيمان المطلق بنبوته، ونشأ عنه حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب.

إننا هنا إزاء ثلاثة آثار ادعى نولدكه أنها ترتبت على ما زعمه من أن النبي عد صوته الداخلي وحيًا؛ هي:

الأثر الأول: أصبح التلقي الحرفي للوحي أساسًا للإسلام.

الأثر الثاني: عد محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا؛ الديني منها والدنيوي.

الأثر الثالث: آمن محمد بنبوته إيمانًا مطلقًا يصل لدرجة التعصب.

الرد على الأثر الأول المدعى:

إنه يدعي أنه قد ترتب على عدِّ النبي صوتَه الداخلي وحي الله؛ أن أصبح التلقي الحرفي للوحي أساسًا للإسلام؛ وأقول:

إن القرآن وحده هو الذي كان واضحًا من أول يوم في ذهن النبي (والمسلمين بالطبع) أنه كلمة الله حرفيًّا، وأن النبي لا يملك أن يضيف إليه حرفًا، أو ينقص منه حرفًا.

ولم يقل أحد (لا النبي ولا المسلمون): إن كل وحي للنبي كان كذلك؛ فالأحاديث القدسية نسبها النبي لله دون أن يكون مأمورًا بالتقيد بذكرها حرفيًّا، وأحاديث النبي نطق بها مجردة عن النسبة لله، وإن كان مضمونها بوحي منه تعالى.

ولقد أقر نولدكه بأن النبي كان يميز – من هذه الزاوية – بين القرآن وغيره من الوحي[1]؛ ولو كان الإيمان بنسبة القرآن حرفيًّا لله تعالى ناشئًا عن وهم نولدكه افتقاد النبي للتجريد المنطقي؛ فلماذا اختصَّ النبي القرآن وحده دون باقي الوحي بهذه الميزة؟ لا يمكن أن يقدم افتراض نولدكه جوابًا.

كما أنه ليس بالمستغرب في تاريخ الدينين الكتابيين: اليهودية والنصرانية؛ أن يكون هناك وحي حرفي من الله؛ فالوصايا العشر – على الأقل – تعد لدى اليهود وحيًا حرفيًّا من الله تعالى.

وأحد الكتب المهمة المعتمدة عند النصارى قال عن الوحي: (إنه يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه؛ لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه)[2].

وقال عن الموحَى إليهم: (إنهم لم يكن لهم دور في الوحي، بل كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله، لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية)[3].

وقد مر من قبل[4] قول نولدكه نفسه: "إن الأنبياء الإسرائيليين نشروا أعمالهم الكتابية على أنها كُتبت من الرب"، وقوله: "لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز

(١) مرت أقواله المتعلقة بهذا الشأن في هذا الجزء.

(٢) علم اللاهوت النظامي ١١٣.

(٣) علم اللاهوت النظامي ١٠٤.

(٤) صفحات ١١، ١٢، ٥٩، ٦٠ من هذا الجزء.

مباشر للفاعلية الإلهية ذاتها".

فلماذا يكون غريبًا إذن أن يخاطب الله محمدًا بوحي يكون بعضه (وهو القرآن الكريم) كله كلمة الله حرفًا حرفًا؟

ولماذا – بدلًا من أن ينظر نولدكه إلى الأمر في إطاره الذي بينته هنا – يعده مترتبًا على نقص لدى النبي: هو أنه كان (دون كل أنبياء بني إسرائيل) يفتقد التجريد المنطقي والنظر العقلي، فعد كل ما يتحرك بداخله وحيًا؟

الرد على الأثر الثاني المدعى:

وهو دعواه أن النبي عدَّ ذلك الصوت الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج عنه خلط بين الديني والدنيوي؛ فقد قال نولدكه[1]:

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن *die Autorität des Qorans* كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام.

إن مفكرًا ساذجًا *(ein naiver Denker)* مثل محمد كان يجب عليه أن يَعدَّ كل ما لا يعارض صوت قلبه *der Stimme seines Herzens* مباحًا".

إن عدم فصل النبي بين الديني والدنيوي لم يكن مرجعه لخلل حاصل لديه (يدعي نولدكه أنه فقدان التجريد المنطقي)؛ بل مرجعه إلى طبيعة الدين الإلهي منذ آدم حتى محمد ﷺ؛ حيث قال الله لآدم وإبليس: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ونظرة واحدة لما يحويه العهد القديم – وبخاصة الأسفار الموسوية الخمسة – من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٢) طه: ١٢٣، ١٢٤.

تشريعات للمجتمع والدولة؛ تكفي لبيان أن عدم الفصل ليس شيئًا ابتدعه محمد ﷺ؛ انطلاقًا مما ذكره نولدكه.

كما أن مبدأ الفصل بين الدين من جانب، والدولة والمجتمع من جانب آخر، ليس مبدأ مسيحيًا - كما يحلو لبعضهم أن يصور - فهو مبدأ مبتدَع في المسيحية - كما يقول بعض مفكري الغرب أنفسهم - وإن المسيحية قبل هذا الابتداع ما كانت تعرف الفصل بين الدين من جانب، والمجتمع والدولة من جانب آخر؛ ففي بعض فقرات العهد الجديد نجد ضرورة الالتزام بالشريعة الإلهية التي تحكم حركة الإنسان في الدنيا[١]؛ يقول أودين أ. كالفبرلي[٢]:

"يفصل كثير من الناس - بتأثير ميراثهم الثقافي وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم - بين الدين والدولة. ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة؛ لكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمر جديد في المسيحية، ابتدعته فيها أقلية مذهبية. ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل. وقد كانت المسيحية نفسها - أو على الأقل إحدى كنائسها - لا تفرق بين الدين والدولة حتى قامت حركة الإصلاح البروتستانتية، ففسرت العهد الجديد تفسيرًا من شأنه أن يفصل بين الأمور الشخصية الروحية، وبين الأمور الجماعية التي تتصل بشكل الأمة ونظمها المختلفة".

وما يأخذه نولدكه هنا على النبي إنما يعود أصلًا إلى خلل في فهم الغربيين عمومًا للدين بسبب الميراث الظلامي لكنيسة القرون الوسطى، التي جعلتهم يتشككون في أي دور يمكن أن يؤديه الدين في المجتمع. ولا يلام محمد ﷺ في هذا، بل يلام الغربيون الذين لم يكتفوا بفهمهم الخاطئ للدين بل حاكموا محمدًا ﷺ وممارساته إليه.

ولم يكن صوت قلب محمد هو معيار الإباحة أو الحظر كما ادعى نولدكه، بل كان الوحي الإلهي. ومرة أخرى: إذا كان نولدكه يسميه (صوتًا داخليًا) لا وحيًا؛ فله كامل

(١) على سبيل المثال: متى ٥: ٢٣، ٢٦.

(٢) مقال (الدين الإسلامي)؛ ضمن كتاب (الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته)، تحرير: ت. كويلرنج ص١٥٢.

الحرية في ذلك، لكن عليه أن يتحمل تبعة اختياره الأخروية، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾[1].

يقول د. محمود حمدي زقزوق[2]: (ما قام به النبي ﷺ في المدينة؛ من تنظيم المجتمع، وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة؛ يعد جزءًا لا يتجزأ من الإسلام الذي جاء نظامًا للحياة بكل جوانبها. وإذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين، فعليهم أن يعيدوا النظر في أفهامهم وتصوراتهم بدلًا من خداع النفس؛ أنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة).

الرد على الأثر الثالث المدعى:

وهو دعوى نولدكه أن إيمان النبي بنبوته، وحماسه لها، الذي زعم أنه وصل لدرجة التعصب، قد نشأ عن صوته الداخلي؛ وأبين هنا أنه قال[3]: "عندما حمل محمد في خلوته الطويلة أفكار الغرباء[4] وتركها لتتفاعل مع فكره؛ أخذت تتشكل بداخله إلى أن أجبره الصوت الداخلي *Innere Stimme* أخيرًا أن يتقدم لمواطنيه ليهديهم رغم الخطر والاستهزاء".

بهذا يجب أن نفهم حماس النبوة الذي يصل لدرجة التعصب *der Fanatismus*"، وأقول:

أولًا: إن المسلمين يقولون: إن الله يخلق لدى النبي (أي نبي) علمًا ضروريًّا[5] بنبوته. ويعنون بالعلم الضروري: غيرَ الكسبي، الذي لم يكن الطريق إليه وسائل يمارسها النبي بذاته. من هنا يأتي اليقين إلى النبي بنبوته. والله الذي أوحى للنبي قادرٌ أن يهبه اليقين في

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٧.
(٢) الإسلام في تصورات الغرب ١٥٠ هامش ٣٩.
(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.
(٤) يقصد اليهود والنصارى. [المؤلف].
(٥) العلم الضروري هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب أو حدس أو تجربة. راجع: التعريفات ج١ ص٦٣.

نبوته؛ إذ ليس خلق اليقين بها فيه بأعسر من جعله أهلًا لمشاهدة الملك والتحدث معه وتلقي الوحي منه؛ مع ملاحظة أن ليس شيء بالنسبة لله أعسر أو أيسر من شيء.

ثانيًا: إذا لم يكن علم الإسلاميات الغربي قادرًا على إساغة هذا الطرح فثمة طريق آخر:

إن إيمان محمد ﷺ بنبوته جاءه بالتأكيد إثر نزول جبريل عليه بأول وحي من الله. ولم يكن رسول الله بحاجة إلى مزيد بيان أو إيضاح بأن الله اختاره لرسالته؛ بل كان في رؤية الملك وما تتابع بعد ذلك من نزول القرآن كفايةٌ لكي يؤمن الرسول بنبوته.

إن هذين الأمرين كفيلان أن يحصل بهما يقين النبي بنبوته؛ إذ ليس نزول الملك على آحاد الناس بالأمر الشائع، ولم ينزل الملك بوحي على أحد معاصر له. وليس القرآن كذلك مما يمكن لآحاد الناس أن يأتي به من تلقاء نفسه. وقد أدرك النبي كل ذلك حتى قبل أن تنزل عليه آيات بعينها تؤكد نبوته وأنه يوحى إليه.

كما أن النبي (بمقارنةٍ ميسورة بين واقعه قبل الوحي وواقعه بعده)؛ يمكن أن يكتشف بنفسه هذا الجديد الذي اقتحم عليه حياته.

فلقد كان الرسول منصرفًا لشأنه الخاص، غير مشارك في أي جدل ديني يدور في محيطه، ولم تكن تسيطر على تفكيره أية مشكلة ميتافيزيقية حتى من قبيل تلك التي سيطرت على أفكار الحنفاء، وظل كذلك حتى الأربعين من عمره. وفجأة ودون توقع أو انتظار، أو إعداد كسبي منه، يفجؤه الملك بالوحي، وينزل عليه القرآن الذي لم يجر على لسانه قبل الأربعين شيء منه، وتتدفق مِن فِيه بحار من الحكمة؛ وهو الذي لم تؤثر عنه عبارة أو كلمة حكيمة مأثورة قبل الأربعين.

والافتراض الوحيد الذي لا يُقبل غيره: أن محمدًا ﷺ وعَى هذه المقارنة، ووقف على تفاصيلها من نفسه، وأدرك أن ثمة جديدًا مهمًّا في حياته، وألجأه هذا لأن يتساءل: ماذا حدث؟ فجاءته الإجابة: **«أنا جبريل، وأنت رسول الله»**.

أليس هذا بكاف ليحصل اليقين لدى محمد بنبوته؟

فهل ما بررنا به يقينَ محمد ﷺ في نبوته أهْدى، أم ما اقترحه نولدكه من صوتٍ داخليٍّ ظهر لنا من قبلُ انهيارُ (أدلةِ مُدّعيهِ على وجوده)، وفشلُه في تفسيره، وبطلانُ القولِ به.

فإذا كان وجوده غير ثابت أصلًا (بل باطل)؛ فكيف يمكن أن يكون تفسيرًا لغيره؟

ثالثًا: وإذا ما عدنا إلى تبريره يقين النبي بالصوت الداخلي؛ فإننا نجد أن نولدكه يرى: أن الصوت الداخلي لدى النبي نشأ بالخلوة في غار حراء. وأن الصوت الداخلي هو الذي أوجد اليقين لدى النبي. ونحن نعلم أن الخلوة المذكورة انتهت ببدء النبوة؛ وهذا يقتضي أن يخمد اليقين النبوي وتنطفئ جذوته بانتهاء الخلوة، أو بعدها بسنوات على أكثر تقدير. لكن لأن يقين النبي في نبوته استمر حتى رحيله؛ فإننا لن نفاجأ بنولدكه حين يقول[1]:

"قد كان محمد حتى النهاية ممتلئًا باليقين، ومن هذا الإيمان كان يغترف الجديد دومًا، وكل الروعة في الوحي المتأخر كانت تنبثق من قوته التي لم تخمد أبدًا".

لكن المفاجأة الحقيقية، (بل الصدمة) هي أن يستمر نولدكه في طرح الصوت الداخلي - الذي يُفترض أنه مؤقت لارتباط نشأته بالخلوة المؤقتة كذلك - تفسيرًا لذلك اليقين المستمر الدائم الملازم للنبي طيلة حياته. ولذا نتساءل: ما سر كل تلك القوة الخارقة في ذلك الصوت الداخلي الذي نشأ للنبي إثر خلوة في غار حراء، وظل معه طيلة حياته، وملأه باليقين، وكان يغترف منه دومًا، وكانت قوته لا تخمد؟ ولم لا يمكن أن نجرب في الواقع بالخلوة الحصول على مثل ما حصل عليه محمد ﷺ؟

الواقع أن نولدكه أراد تفسير يقين محمد ﷺ بنبوته فزاده تعقيدًا؟

رابعًا: إن نولدكه اجترأ فوصف النبي بأن إيمانه بنبوته وصل إلى درجة التعصب.

لكن كما رأينا فإن نولدكه لم يبين لنا ماذا يقصد بالتعصب؟ هل هو تعصب في إيمانه ﷺ بنبوته؛ أم تعصب بشكل مطلق في السلوك والأفكار؟ ولم يبين لنا كذلك المعطيات التي على أساسها اتهم النبي بهذا الاتهام.

(١) عند حديثه عن ميزات سور الطَّوْر المكي الثاني من كتابه تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١١٨.

إن هذا يعطينا دلالة واضحة على نفسية الاستعلاء التي تعامل بها نولدكه مع هذه الجزئية المتعلقة بالنبي. إنه لا يرى أنه بحاجة لأن يقدم أدلة أو معطيات أو وقائع على أحكامه المطلقة؛ بل يكفيه أن يطرح انطباعاته وعلى المتلقي أن يسلم بها. وهذه النفسية فضلًا عما فيها من إخلال بقواعد المنهج العلمي؛ ففيها كذلك ظلم شنيع لمادة البحث التي هي هنا النبي، وظلم كذلك للقارئ الغربي الذي يُصَادَر حقه في أن تكون له أحكامه المستقلة المبنية على معطيات يحول بينه وبينها بعض رواد علم الإسلاميات الغربي[1].

أيًا ما كان الأمر؛ لنبحث نحن عن المقصود بالتعصب: إنه مصطلح له في كل اللغات دلالة سلبية؛ إذ هو يعني: (عدم قبول الحق عند ظهور الدليل؛ بناء على ميل إلى جانب)[2].

وعرفه مجمع اللغة العربية بأنه (غلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة؛ بحيث لا يدع مكانًا للتسامح.. وهو بهذا حالة غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، ويصاحبها ضيق أفق، وبعد عن التعقل)[3].

فإذا كان نولدكه يقصد هذا؛ فهل وقف من شخصية رسول الله على مثل هذه الصفات؟

إن نولدكه لم يقل لنا أين يمكن أن نلمح هذا التعصب لدى النبي. هل يعد نولدكه إيمان النبي بالله وسائر عقائد الدين كما أنزلها الله تعصبًا؟

هل كان يتوقع من محمد ﷺ أن يهادن الشرك والوثنية وانحرافات أهل الكتاب ولا ينتقدها حتى يكون عند نولدكه متسامحًا؟ ومَن مِن الأنبياء هادن الشرك والوثنية؟ وهل سكت المسيح على انحرافات اليهود؟ هل كان هو الآخر متعصبًا؟

---

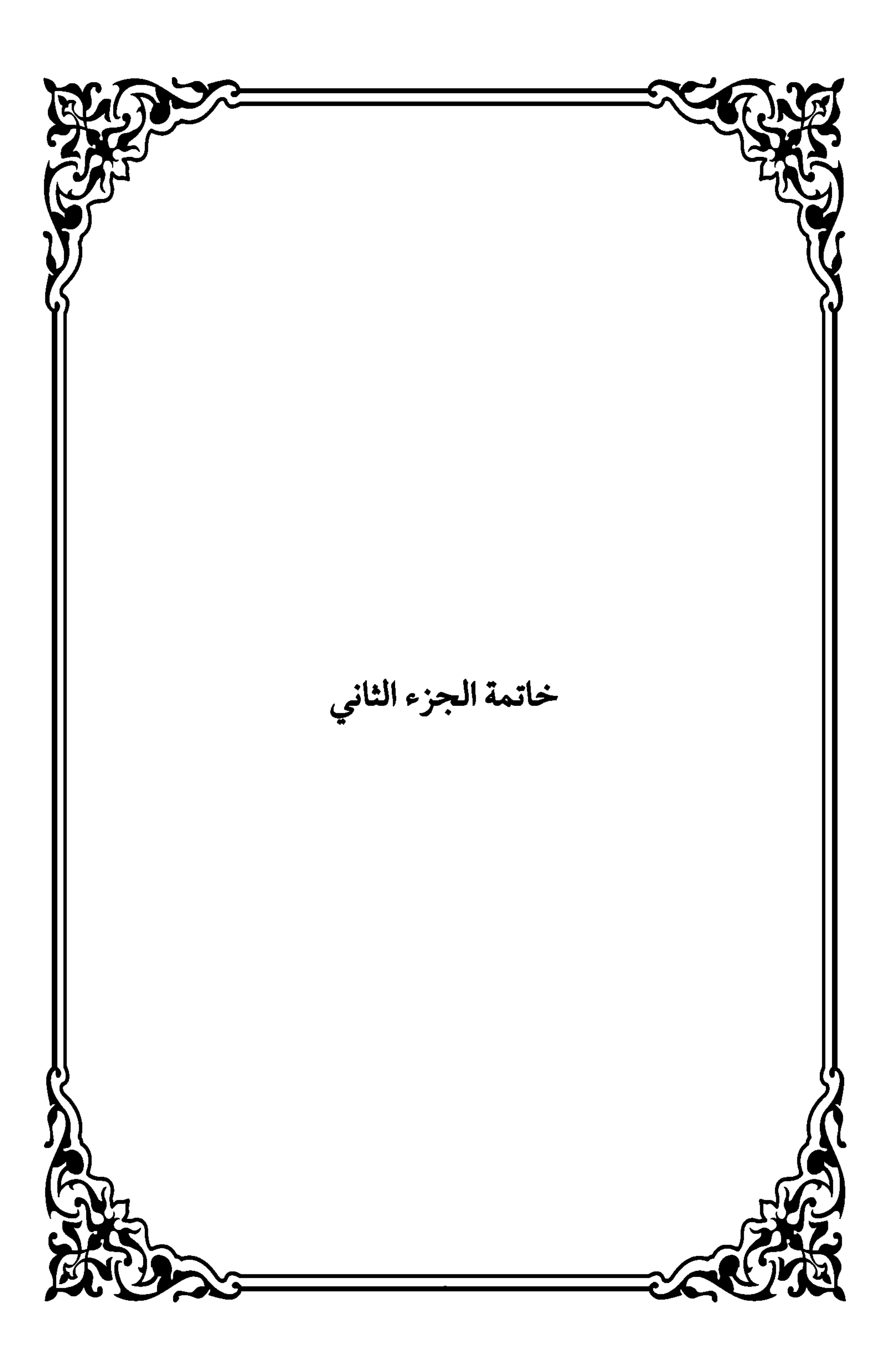
(١) لاحظت للأسف الشديد أن هذا يشبه أن يكون اتجاهًا عامًّا لدى كثير من كبار المؤلفين الغربيين في الإسلام، والأمل معقود على الأجيال الشابة منهم أن يقتربوا أكثر إلى الموضوعية.

(٢) الدكتور عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ٦٣.

(٣) المعجم الفلسفي من إصدار مجمع اللغة العربية المصري ص٤٩.

أم أن نولدكه كان ينتظر من النبي أن يشك في نبوته، ولا يؤمن بها؟ ومن من الأنبياء لم يؤمن بنبوته؟ إن نولدكه لم يبين لنا الحدود الفاصلة بين الإيمان الذي يصل لدرجة التعصب، والآخر الذي يخلو منه.





خاتمة الجزء الثاني

الخاتمة

أثبت هذا الجزء من الدراسة:

- عدم صحة دعوى نولدكه (أن النبي كان خوافًا).
- بطلان دعوى نولدكه أن الصوت الداخلي هو الذي قوى النبي على الإنذار.
- أن (إعلان القرآن أن النبي كان يخاف من عذاب الله) لم يكن متعلقًا بـ (عدم تبليغه قومه) فقط؛ بل كان متعلقًا بـ (كل ما فيه معصية لله تعالى).
- أن خلوة النبي لم تكن فعلًا مقصودًا بهدف تحصيل النبوة.
- خطأ تفسير نولدكه لنشأة الصوت الداخلي المدعَى[1].
- تهافت حديثه عن سبب عد النبي ﷺ الصوت الداخلي المزعوم وحيًا.
- خطأ وصف نولدكه النبي بـ (عدم القدرة على التجريد المنطقي)؛ حيث:

١- أثبت من خلال تفحص العلاقة بين ذات النبي والوحي أن: النبي ﷺ ميز بين آرائه واجتهاداته وبين الوحي، وأنه اختار في البداية أن يحرك به لسانه ليحفظه وجاء الوحي ناهيًا له عن ذلك، وأنه ﷺ لم يُقحم في القرآن دعاءه لله، (ولا بعض تعقيباته وإضافاته بشأن القصص القرآني عن بعض الأنبياء). وأن القرآن جاء بما لا يُتوقع تذكر ذات محمد ﷺ له.

٢- أثبت من خلال واقع القرآن ذاته أن لا أثر لشخصيته ﷺ في القرآن، وأنه

(١) حيث فسره بدخول النبي في خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار أهل الكتاب؛ فنشأ صوت داخلي ظنه النبي وحيًا من الله.

ليس انعكاسًا لرغباته.

٣- أثبت أن واقع العلاقة بين النبي والقرآن يتناقض بشكل صارخ مع افتراض نولدكه (أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي)؛ حيث أثبت أن النبي ميز بين السنة والقرآن، وانتظر الوحيَ عند استفتائه في بعض المسائل، وأن القرآن راجَع بعض مواقفه ﷺ واجتهاداته، كما وجَّه الوحي القرآني الخطابَ إلى النبي ﷺ (بما يُفهم منه ضرورةً وجودُ ذات مخاطِبة وأخرى مخاطبَة)، وسَلَبَ قدرته على أن يُعَدِّل فيه، ونزل بتشريع جديد هو حكم اللعان، (بعد أن كان رسول الله قد أوشك على تطبيق التشريع الذي كان ساريًا من قبل). وأن في القرآن ما يصدم الواقع الجاهلي ... وهي كلها وُجُوهُ تَنَاقُضٍ مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًّا للنبي ﷺ.

- أن (حالة الوحي ذاتها) تتناقض مع افتراض نولدكه (كونه صوتًا داخليًّا)؛ وثبت هنا:

١- أن الوحي إلى النبي شمل غيرَ الإنذار (بما يخالف أصل نولدكه).

٢- أن الوحي تأخر عنه ﷺ رغم توفر شعور داخلي لديه متعجل له في بعض الأحيان، والحاجةِ الماسة إليه في أحيان أخرى.

٣- أن الوحي إليه ﷺ لم تكن له أوقات ولا استعدادات خاصة.

٤- أنه كان ذا أبعاد موضوعية؛ (حيث ارتبط بالوحي بعضُ المظاهر الحسية). وهذه أمورٌ تتناقض مع افتراض نولدكه أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي.

- تهافت ما ذكره نولدكه من آثارٍ ترتبت على ما ادعاه من صوتٍ داخليٍ للنبي، (وهي حرفية وحي القرآن، والخلط بين الديني والدنيوي في الإسلام، وتعصب ينسبه لمحمد ﷺ).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، والحمد لله أولًا وآخرًا.



الفهرس المفصل للموضوعات

الفهرس المفصل للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *